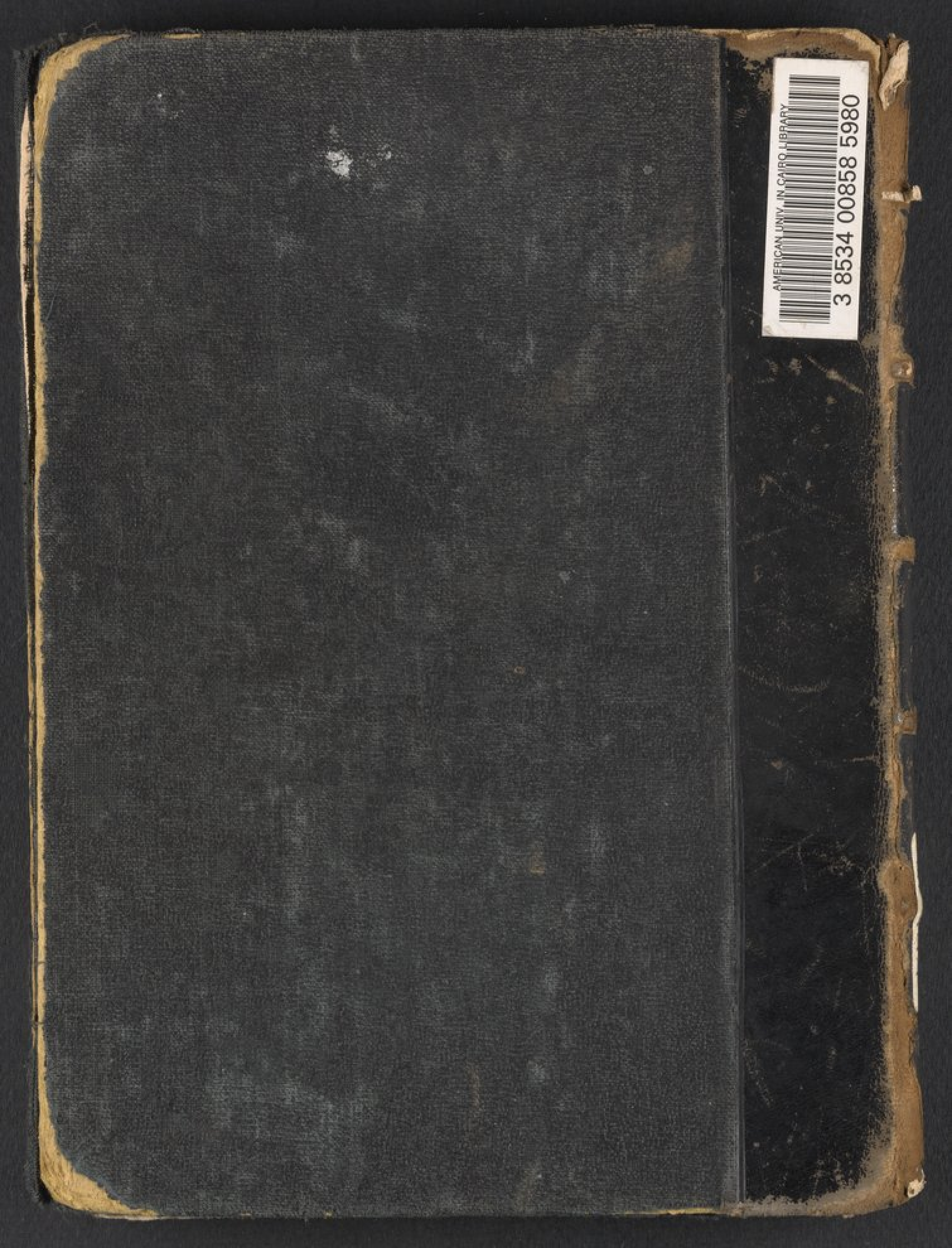
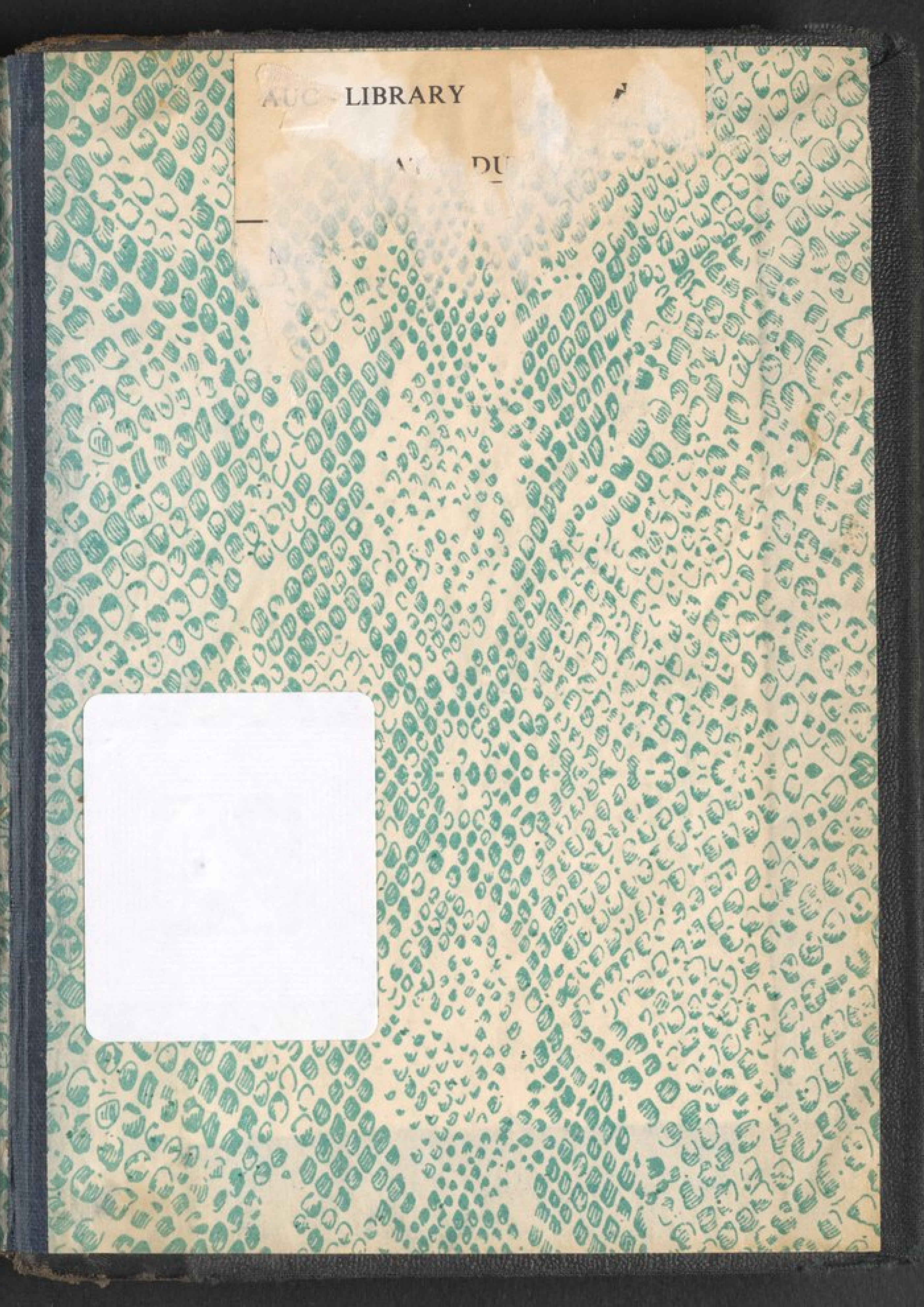

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00858 5980



عبد الرحمن ابو الحسين

وكيل وزارة الخزانة لشؤون العقارات

(مسرح القومي) — السلطان الحائر (أجمال عبد الناصر العائد؟ السبق؟)

نائب في الأرياف (الوعي بالبيئة المصرية)

سجن العمر (autobiography)

يا طالع الشجرة (المسرح — absurd من مسرح عبث أوروبا)

نعمان عاشور "الناس اللي تحت" تأثراً بجوركي Lower depth

ماهى التعادليـــة ؟

الواحد الصحيح = صفرا

الحياة الايجابية تبدأ من العدد « اثنين »

كل حركة يجب أن تقابلها وتعادلها حركة .

كل قوة يجب أن تقابلها وتعادلها قوة .

الله وحده هو الواحد الأحد الكامل بذاته . ومع ذلك أوجد بأرادته تعالى قوة أخرى مقابلة هى قوة الشيطان ، كى تبدأ الحياة البشرية فى التلون والتحرك .

وخلق الله آدم واحدا صحيحا . فكان وجوده سلبيا .

فصنع منه اثنين . ووجد آدم وحواء .

وعندئذ اتخذ الوجود حركته الايجابية .

والشمس بمفردها قوة سلبية . ولكنها انقسمت إلى كواكب أخرى ، تتعادل وتتوازن لتقاوم وتبقى ، فبدأت فى الكون الحركة الايجابية .

قوة السلطان المطلق حركة سلبية . ولابد من حركة مقابلة معادلة هى قوة المحكوم ، لتبدأ فى المجتمع حياة إيجابية

وهكذا . . . وهكذا . . .

تلك هى التعادلية فى جوهرها .

خلاصتها أن الواحد الصحيح وجود سلبى .

هو خطوة بعد العدم . هو من حيث الحركة الإيجابية صفر . لأنه لا يقاوم غيره ولا يجد غيراً يقاومه . وبانعدام المقاومة تقف الحركة .

الحياة الحقيقية لا تبدأ إذن إلا من العدد « اثنين » .

ولكى يظل العدد اثنين موجودا دائماً ، يجب أن يحافظ كل واحد فيه على قوته الخاصة . فاذا تضخم واحد على حساب واحد . أو ابتلعت قوة أحدهما قوة الآخر ، رجع العدد ٢ إلى واحد صحيح . أى إلى الوجود السلبي .

التعادلية إذن تفسر الحياة الإيجابية بأنها ضرورة وجود جملة قوى تتقابل وتتوازن فى الكون والمجتمع .

وأن العدم يبدأ بابتلاع جميع القوى فى واحد صحيح .

الواحد الصحيح هو السكون .

والأعداد المختلفة المقابلة هى الحركة . . . هى الحياة

تلك هى التعادلية .

هى فلسفة الحركة أى الحياة .

احتفظ بقوتك الخاصة مستقلة حرة ، لتعادل بها وتقابل القوى الأخرى التى تريد أن تبتلعك . بذلك تقاوم وتتحرك وتحيا ! . .

التعادلية هى مقاومة الابتلاعية .

إذا كان لديك ضعف و نقص ، فابحث جيدا فى أنحاء نفسك ، فستجد فيها قوة خفية معادلة وزيادة كامنة مقابلة ..

عادل وجودك كما ، فعلت ارضك ازاء الشمس ! .. وازن نفسك تجاه القوى المواجهة ! .. وإلا ابتلعتك فى جوفها ، وأصبحت لها وقودا وطعاما .. وصرت عدما! .

هكذا تقول التعادلية ! ..

كل قوة تتضخم تريد ابتلاع غيرها . الرأسمالية تريد ابتلاع العمل . الاستعمار يريد ابتلاع الشعوب . الطبقة القوية تريد ابتلاع الأمة كلها . الغرب يريد ابتلاع الشرق . التعادلية هى الفلسفة المقاومة للابتلاعية.

* * *

توفيق الحكيم

التعادلية

مذهبى فى الحياة والفن

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز ت : ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

مسرحيات	المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة فى القلب ، جنسنا اللطيف (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)
القصر المسحور	بالاشتراك مع الدكتور طه حسين (مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)
مسرحيات	المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المنهمة . أمام شباك التذاكر . الزمار . حياة تحطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
يوميات نائب فى الأرياف	الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) الطبعة الثانية : لحساب وزارة المعارف العمومية (مطبعة مصطفى البابي الحلبى وأولاده بمصر عام ١٩٣٧) الطبعة الثالثة : (طبعة مدرسية) (النموذجية ١٩٤٩) الطبعة الرابعة : (النموذجية ١٩٥٣) الطبعة الخامسة : (مدرسية) (النموذجية ١٩٥٤)
عصفور من الشرق	الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) الطبعة الثالثة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥١)
سليمان الحكيم	الطبعه الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)
زهرة العمر	الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

رصاصة فى القلب	(مطبعة التوكل عام ١٩٤٥) .
الرباط المقدس	(مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤)
حمارى قال لى	(مطبعة المعارف عام١٩٤٥)
شجرة الحكم	(مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
الملك أوديب	(المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)
قصص توفيق الحكيم	المجموعة الأولى والثانية (مطبعة دار سعد مصر ١٩٤٩)
مسرح المجتمع	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٠)
فن الأدب	المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)
ذكريات الفن والقضاء	(مطبعة المعارف عام ١٩٥٣)
أرني الله	المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤)
عصا الحكيم	(مطبعة دار الهلال عام ١٩٥٣)
دقت الساعة	(مطبعة روز اليوسف عام ١٩٥٤)
تأملات فى السياسة	(مطبعة روز اليوسف عام ١٩٥٤)
التعادلية	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٥)

كتب للمؤلف

نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد	ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية . فى دار نشر نوفيل ايديسيون لاتين وترجم الى الانجليزية ونشرت مختارات منه فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كراون) بنيويورك . فى عام ١٩٤٥
عودة الروح	ترجم ونشر بالروسية فى ليننجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل للنشر . وبالأنجليزية ونشرت مختارات منه فى لندن عام ١٩٤٢
يوميات نائب فى الأرياف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الانجليزية فى (دار هارفل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨
أهل الكهف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرنس ثم ترجم الى الايطالية بروما عام ١٩٤٥
عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

تابع الكتب التى نشرت باللغة الأجنبية

بجماليون	:	ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
أوديب	:	ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
سليمان الحكيم	:	» » » » » » »
نهر الجنون	:	» » » » » » »
عرف كيف يموت	:	» » » » » » »
المخرج	:	» » » » » » »
بيت النمل	:	» » » » » » »
الزمار	:	» » » » » » »

« دار نشر نوفيل ايديسيون لاتين بباريس »

مشكلة الحكم	:	ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣
السياسة والسلام	:	» » » » » » »
الشيطان فى خطر	:	» » » » » » »
بين يوم وليلة	:	» » » » » » »
العش الهادى	:	» » » » » » »
أريد أن أقتل	:	» » » » » » »

تابع الكتب التى نشرت باللغة الأجنبية

الساحرة	:	ترجم ونشر باللغة الفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣
دقت الساعة	:	» » » » » » » »
أنشودة الموت	:	» » » » » » » »
لو عرف الشباب	:	» » » » » » » »
الكنز	:	» » » » » » » »

هذه الصفحات ليست سوى إجابة عن سؤال .

إجابة موجزة عن سؤال مهم ، وجهه إلىّ قارىء جاد

وقد جعلت إجابتى للنشر ، لأنها قد تلقى ضوءا على

كتبى التى نشرت .

ثم هى بعد ذلك تحمل تحديدا لوضع ، يمكن وصفه

بأنه مذهبى فى الحياة والفن .

My ideology in the art and life.

belief = مذهب

تسألنى ما هو مذهبى فى الحياة والفن ؟ . وتقول إنك قرأت كل كتبي وخرجت منها بعقيدة : هى أنها فى مجموعها تحاول تفسير «الإنسان» فى وضعه العام من الكون بزمانه ومكانه ، وفى وضعه الخاص من المجتمع بأجياله وبيئاته ، وأن هذا التفسير يدل على اتجاه ، يمكن وصفه بالمذهب ، لو كان فى المقدور استخلاص أسسه وقواعده ، وهو ما تسألنى أن أقوم به .

أعترف أنى سررت لقولك هذا وعجبت . . . سررت لأنى أحب القارىء الذى يستكشفنى . وعجبت لأنى لم أفكر حتى اليوم فيما فكرت أنت فيه . ولعل السبب هو أنى أكره الفن الذى يبنى على مذهب ، ولا بأس عندى أن يبنى المذهب على الفن . لأن الفن هو الكاشف الحر عن أسرار الكون . وهذه الحرية فى الأحساس والشعور والبحث

والتفكير كانت هى وسيلتى الأولى . أما وقد كتبت ما كتبت بهذه الحرية ، فأن المذهب الذى يمكن أن يستخلص من هذه الكتابات لا يضيرنى ولا يقيدنى . ومادمت تدعونى أن أبحث عن هذا المذهب أو هذا الاتجاه بين هذه الكتب فلن أحجم . سأتحدث إذن على أساس فكرتك

أولا — وضع الإنسان فى الكون .

ثانيا — وضع الإنسان فى المجتمع .

ماهو الإنسان أولا ؟ . . . هذا سؤال قديم قدم التفكير الآدمى . . . جديد ما بقى التفكير الآدمى فى هذا الكون . . . فالإنسان مضافاً إليه التفكير يولدان حتما هذا السؤال . . . ومادام السؤال قد ألقى فلا بد له من جواب . . . وهذا الجواب هو كل ما تحاول صياغته ، فى أثواب متجددة جدة الأيام والليالى ، كل علوم الأرض وفلسفاتها وفنونها وآدابها. وهذه المحاولات لا يدرى أحد مصيرها . لأن الجواب لا يمكن أن يكون قاطعا مادام السؤال غامضاً . والسؤال غامض لأنه وليد أبوين غامضين وهما : الإنسان والتفكير . وإذا كانت القرون تولى والسؤال يلقى فى كل يوم : ماهو الإنسان ؟ . . . ماهو التفكير ؟ . . . فهل نطمع فى حل نهائى لهذه الأسرار ؟ .

ما أظن أحداً يأمل فى حلول نهائية أو إجابات قاطعة . . .

إنما المطلوب هو الاجتهاد فى الملاحظة والتفسير . كل من زاويته . وكل بوسيلته . وكل بأسلوبه .

هذا كل مانستطيع . وهذا كل واجبنا . ولا ينبغى أن نترك الوجود دون أن نلقى على أنفسنا السؤال : ماهو الانسان ؟ . . . وأن نحاول إيجاد تفسير . . .

وهنا يدخل الفرض لمعاونتنا . . . يجب أن نفترض حقائق نسلم بها حتى نستطيع السير فى هذا الليل البهيم . . . ولولا الفرض فى الفلسفة والعلم لماكان هناك تقدم نحو أى تفسير لأى ظاهرة من الظواهر .

فلأفترض مؤقتاً أن الإنسان لا يحتاج إلى تعريف . إنه ذلك المخلوق المعروف لنا جميعاً الذى يعيش فوق هذه الكرة الأرضية .

ولأفترض مؤقتاً أيضا أن التفكير هو حركة الوعى الذاتى فى اتجاه منتظم متسلسل أى منطق .

هذا المخلوق المفكر الذى يسأل عن حقيقته .

ما صفاته ؟ .. أول صفة لا تقبل الشك هو أنه يعيش على هذه الأرض ... إذن لا بد أن تكون بينه وبين الأرض صلة ... أو مشاركة فى صفة .

ولكن ما هى الأرض ؟ ...

خرجنا من سؤال عسير إلى سؤال أعسر ...

فلنقنع بأهم صفة للأرض ... وهى أنها كرة تعيش بالتوازن أو التعادل بينها وبين كرة أضخم هى الشمس ... فإذا اختل هـذا التعادل ابتلعتها الشمس أو ضاعت فى الفضاء .. التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض .

فهل صفة التعادل هى أيضا الحقيقة الأولى فى كيان الإنسان ؟ .

فلننظر أولا كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن مادى ؟ .. إنه يعيش طبعا بالتنفس .

ما هو التنفس ؟ هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير .

فإذا اختل هذا التعادل بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغى طاغياً على الزفير أو امتد الزفير أكثر مما ينبغى جائراً على الشهيق وقفت حياة الإنسان. فإذا تركنا التركيب المادى إلى التركيب الروحى ، وجدنا عين القانون .

فالتركيب الروحى للأنسان له هو أيضا شهيقه وزفيره ، فيما يمكن أن نسميه الفكر والشعور . أو بعبارة أخرى : العقل والقلب .

والحياة الروحية السليمة هى أيضا تعادل بين الفكر والشعور .

وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية ما هو إلا اختلال فى هذا التعادل . اما بتضخم الشعور تضخما يلغى إلى جانبه أو يعطل مهمة الفكر ، فيرتد الأنسان طفلا فى أعوامه الأولى . وإما أن يطغى الفكر ويكبت الشعور ، فترتبك أداة الأدراك فى الأنسان . . .

فالأنسان إذن كائن متعادل ماديا وروحيا . وهو ليس

Answer to quation p 15

وحده الذى ينطبق عليه هذا التعريف . كل الكائنات التى تحملها هذه الأرض المتعادلة ، تتعادل هى أيضا كأمها فى تركيبها ؛ تعادلا هو سر حياتها.

فالحيوان والنبات . والجماد ... كلها تخضع لقانون « التعادل » فى تركيبها البيولوجى والكيميائى والطبيعى . حتى فى نظر العلم الحديث ، الذى غير معتقدات القرن التاسع عشر حول « المادة » وبين بنظرياته عن « المادة » و « المجال » إن ما نصفه بالمادة ليس سوى « الطاقة » مركزة تركيزا شديدا. كما أنه صاغ أيضا القوانين الجديدة فى مجال الجاذبية بين جزيئات المادة . والجاذبية هى أساس التعادل . لأن الجاذبية تعنى وجود قوتين . والتعادل يعنى المحافظة على بقاء القوتين ، دون أن تتلاشى إحداهما فى الأخرى .

ولنترك الانسان من ناحيته المادية لرجال العلم ، فما يهم رجال الأدب والفن هى الناحية الروحية فى الانسان . وان كانت الناحيتان متداخلتين أحيانا . بل ان من الصعب وخاصة

فى نظر المعرفة الحديثة فصل ما هو مادى عما هو روحى . بل أصعب من ذلك إيجاد تعريف دقيق لمعنى كلمة «روحى» . ولكن المقصود بالطبع هو المعنى الشائع فى الأدب والفن لهذه الكلمة . المعنى الذى يراد به الأشارة إلى حياة الأنسان الفكرية والشعورية .

فإذا أراد الأدب أو الفن تفسير الأنسان ، فأنما يعنى إلقاء الضوء على موقفه الفكرى والشعورى تجاه هذا العالم الذى وجد فيه . عالم الزمان والمكان والماضى والحاضر والمستقبل والبيئة والمجتمع الخ . . .

ووسيلة الأديب أو الفنان فى تفسير الأنسان مغايرة لوسيلة العالم والفيلسوف . فهو لا يلجأ إلى منهج بحث أو تحليل . ولكنه يلجأ إلى موهبة خلق ومحاكاة . فهو ينشىء صورة للأنسان . أو على الأصح صورة لتفكيره وشعوره قد تحوى من السمات والصفات الظاهرة والخفية ما يعين العلماء والفلاسفة على استنباط الحقائق والقوانين .

على أن موهبة الخلق والمحاكاة لا تكفي وحدها للقيام بهذا التفسير والتصوير، إذا لم تستمد غذاءها من جوهر العلوم والمعارف السائدة في عصر الأديب أو الفنان .

ففكرة أبي العلاء أو شكسبير عن الأنسان هي في نفس الوقت انعكاس لما كان سائداً في عصر كل منهما من ثقافة ومعرفة . ولن يصل الأديب أو الفنان إلى تحديد موقف الأنسان في زمانه وعالمه ومجتمعه وعصره ، إذا انقطعت صلة الأدب أو الفن بالعلوم والأفكار المحيطة به .

على أن مهمة الأديب أو الفنان ليست مجرد تصوير هذه العلوم أو تجسيد هذه الأفكار . بل ان واجبه اعتبار هذه العلوم والأفكار مادة غذائية تنفعه في بناء الأنسان من جديد ، بناء حراً ينبع وحيه من صميم موهبته الخاصة في الخلق والملاحظة والمحاكاة . . .

وعندما أقول المحاكاة لا أقصد تقليد المظاهر السطحية بل أقصد محاكاة الطبيعة في قوانينها الخفية ، التي يستطيع الفنان

اقتناصها بشبكة احساساته الدقيقة

تلك هى وسيلة الأدب والفن فى تفسير الأنسان .

قد تسألنى بعد ذلك :

ما تفسير الأنسان فى نظر الأدب والفن فى عصرنا الحاضر ؟ . . .

هـذا سؤال يحتاج فى الاجابة عنه إلى مجلدات ، تملأ بالآراء والمذاهب والاتجاهات التى شغلت الأذهان فى هذا القرن الأخير .

وليس هنا موضع الحديث فى ذلك . فالمطلوب منى فى إجابتى هذه إليك أن أعرض تفسيرا للانسان مستخرجا من كتبي . أليس هـذا غرضك ؟ ولن أرجع إلى كل الكتب . ولن أسهب فى التفصيلات . فما أنا بصدد بحث عام . إنما أنا أبدى وجهة نظرى الخاصة لتكون نقطة بداية لمن يعنيه الأمر .

ما هو وضع الأنسان العام فى هذا الكون كما تصورته ؟ .

هذا السؤال يستوجب التقسيم إلى مسألتين تعرضان دائماً فى كل عصر :

المسألة الأولى — هل الإنسان وحده فى هذا الكون ؟ .

المسألة الثانية — هل الإنسان حر فى هذا الكون ؟

الجواب عن هاتين المسألتين يترتب عليه تحديد تبعات الإنسان وتعيين مدى نشاطه ونتيجة كفاحه ...

ولقد أجاب العصر الحديث فعلا بأن الإنسان وحده لا شريك له فى هذا الكون، وإنه إله هذا الوجود ، وأنه حر تمام الحرية . وبهذا الجواب الذى قضى على تعاليم الأديان، ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية ، وعلى الرغم من بقاء الدين فى كثير من البلاد المتحضرة ، ماضيا فى دعوته ، محافظا على مظاهر قوته . إلا أن الناس جميعا حتى المتمسكين بالطقوس وروح النصوص ، قد سيطرت عليهم النزعة المادية دون إدراك منهم ، لأن جو العصر كله قد تشبع بها تشبعاً لا تجدى فى صده النوافذ المغلقة ولا الأبواب الموصدة فوا أوه

يتسرب إلى النفوس وهى لا تفطن ...

ما السبب فى ذلك ؟ ..

السبب واضح : وهو أن التعادل الذى كان قائما حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ... أى بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان قد اختل منذ ذلك الوقت بتوالى انتصارات العلم العقلى، واستمرار جمود الجانب الدينى ؛ فالعلم وليد العقل قد ضاعف قوته وجدد وسائله ووسع آفاقه ، فى حين أن الدين وليد القلب بقى محصوراً فى أفقه ، لم يكتشف منابع جديدة فى أعماق القلب الأنسانى ، تتعادل مع تلك العوالم الجديدة التى اكتشفها العقل البشرى .

وباختلال هذا التعادل وقع العصر الحديث فى الجانب الأرجح ونجم عن ذلك خضوعه للنتائج المترتبة على سيطرة العقل وحده . ومنها حرية الأنسان فى هذا الكون تبعا لحرية فكره ، وإنكار كل مالا يثبت بالبحث والاختبار ، ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الأنسان

أو وجود آخر غير وجوده فهو كائن وحـــده فى هذا الكون ...

وكان لهذا الاختلال فى التعادل نتيجته الطبيعية التى لا بد أن تلازم كل اختلال فى التوازن ... وهو القلق . فالقلق السائد فى النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب فى ميزان التعادل بن العقل و القلب ... بين الفكر والإيمان . وهذا الاختلال فى التعادل لابد أن يصحح نفسه بنفسه على مدى الوقت ... وقد ظهرت فى هذه الأيام بعض الدلائل . فالعصر الحديث بدأ يزهد فكرة الإنسان الكائن وحده فى هذا الكون ... فهو يتشوق حنينا إلى أحد غيره ... إلى كائن أرقى ... ولم يسعفه الدين بأطار جديد لهذه الفكرة التى جعل يحن إليها ... فبقى ينتظر ويأمل أن تتحقق المعجزة ولكن فى محيط العلم العقلى الذى لم يزل مسيطرا على فكره ... وما الاهتمام بالأطباق الطائرة اليوم، وأمل الناس فى أن تكون آتية برسالة من عالم أفضل

وكائنات أرق ، إلا متنفس عام يلطف الشعور الذى جف بجفاف المنبع الدينى ، ويريح الإنسان من قلقه ، ويخرجه قليلا من ضيقة بوحدته فى هذا الكون .

هذا التعادل واختلاله بين العقل والقلب فى إطار مشكلة الزمن كان موضوع مسرحيتى « أهل الكهف » . كما أن هذا التعادل أيضا واختلاله بين الفكر المطلق ممثلا فى « شهريار » والإيمان العاطفى ممثلا فى « قمر » ، متحركا فى إطار مشكلة المكان ودورته كان موضوع مسرحيتى « شهرزاد » .

على أن لقلق الإنسان فى العصر الحديث سببا آخر متصلا بأمنه المباشر ، فهو يخشى فى كل لحظة دماره المادى بيده هو نفسه. هذا السبب هو فى عين الوقت نتيجة من نتائج انتصاراته العقلية والعلمية . فهو قد أصبح قادراً قدرة مادية هائلة ساحقة ، يمكنها فى أى وقت أن تفلت من يده ، وإذا افلتت فقد هلك . هذه القدرة أو القوة لا يلجمها غير حكمته . . . وهو لا يضمن كثيرا هذه الحكمة . ومن هنا جاء

قلقه . . قلقه على سلامته وكيانه، فهو يعيش من يوم إلى يوم في هذا العصر الحديث ناظراً إلى ميزان التعادل بين القوة والحكمة، بعين زائغة شاردة . . .

هذا التعادل بين القدرة والحكمة وثباته واختلاله كان موضوع مسرحيتي « سليمان الحكيم » (٣)

من كل ذلك تتضح وجهة نظرى فى قضية الإنسان . فأزمة الإنسان فى هذا العصر هى عندى نتيجة اختلال فى تركيبه التعادلى . .

وعلى ذلك يسهل استنتاج جوابى عن السؤالين السابقين .

هل الإنسان وحده فى هذا الكون ؟ . . وهل هو فى هذا الكون حر ؟ . .

لم أنشر رأيا صريحا فى هذا المعنى ومع ذلك فقد أصبح لى ، فيما يظهر ، رأى فى هذا الشأن ، لدى بعض النقاد الأجانب الذين يعنون عادة باستخلاص هذه الاتجاهات

من الآثار. فأغلبهم ذكر فى تعليقاته وبحوثه عن مسرحياتى العشرين التى ترجمت أن الفلسفة المسيطرة عليها هى قدرة الإنسان المحدودة أمام قدره ، وأن مصير الانسان عندى مرتبط دائماً بكفاحه أمام القوى غير المنظورة .. وشذ بعضهم عن ذلك قائلا إن المعتقدات عندى قد تحررت من قدسيتها لتلبس رداء إنسانيتها . ولكن الإنسان فيها ظل قلقا مهدداً بقوة خفية .

مهما يكن الرأى فالمفهوم ممـا كتبه هؤلاء أنهم استنتجوا من خلال مسرحى أنى على أى حال لا أؤيد فكرة وحدة الانسان أو حريته المطلقة فى هذا الكون .

وهذا ما لا أنكره .

فأنا أحس بشعورى الداخلى أن الانسان ليس وحده فى هذا الكون ... وهذا هو الإيمان . وليس من حق أحد أن يطلب إلى الإيمان تعليلا أو دليلا . فاما أن نشعر أو لا نشعر . وليس للعقل هنا أن يتدخل ليثبت شيئا . وأن

Le coeur a ses raison que la raison ne connait pas

اولئك الذين يلجأون إلى العقل ومنطقه ليثبت لهم الأيمان إنما يسيئون إلى الأيمان نفسه . فالأيمان لا برهان عليه من خارجه . إنى أؤمن بأنى لست وحدى .. لأنى أشعر بذلك .. ولم أفقد إيمانى ، لأنى رجل متعادل .

ولكنى من جهة أخرى أفكر بعقلى . لا لكى أدعم إيمانى بأنى لست وحدى ... بل لأعرض المسألة أمام تفكيرى بعيدا عن الأيمان .

هل يقبل العقل فكرة الكائن الأرقى ؟ ... أى الأرقى من الأنسان ؟ ...

إن الحيوان حتى فى أعلى مراتبه لا يدرك فكرة الأرقى ... إنه يدرك فكرة الأقوى ... فالعالم بالنسبة إليه إما مخلوقات ضعيفة يتغلب عليها وإما مماثلة له فى القوة ، وإما أقوى منه يتحاشى مواجهتها ... والقوة عنده بدنية بحتة .

أما الإنسان فيستطيع بعقله أن يدرك فكرة الأرقى ...

أى الأقوى ذهنا وروحا . . .

وهو يستطيع أن يرى فيما حوله آثار أعمال تدل على ذهن أقوى وروح أرقى ملايين المرات من ذهنه وروحه .. فما الذى يمنعه عندئذ من قبول فكرة وجود الأرقى ؟ . . .

إن الحيوان قد قبل الفكرة فى محيطه المادى البدنى ، فتحاشى قتال الأقوى . . ، ومعنى هذا التحاشى هو إيمانه بوجوده . . . فلماذا لا يقبل الانسان الفكرة فى محيطه الذهنى الروحى ، ويؤمن بوجود الأرقى ؟ . .

إن عقلى يقر الفكرة .

ولكنه لا يستطيع أن يصنع لها صورة جدية واضحة تتفق مع جلالها

لأن العقل لا يصنع غير الصور التى تتمشى مع منطقه ، ومنطقه قائم على فروض ومشاهدات وملاحظات مما يقع فى نطاق اختباراته . فهو إذن ان يصنع للأرقى غير صورة لما يعرف ، مجسمة غاية التجسيم فى عرفه ونظره .. وهذا

لن ينتج غير صورة مشوهة تهبط بالفكرة ... ولعل هذا سبب من أسباب الالحاد

فنحن نسأل العقل أن يصنع لنا صورة لله فيخفق ، فبدلا من أن نضحك ونهزأ بالعقل ، نضحك ونهزأ بفكرة الله !..

فلنؤمن اذن بالقلب وحده .. تلك قوته . ولندع العقل يفكر فى مجاله وحده .. تلك أيضاً قوته ...

وهذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية الانسانية .

بقى أن أجيبك : هل الأنسان حر فى هذا الكون ؟ . .
ما من جواب يمكن أن نتلقاه إلا من القوتين المنوط بهما مهمة الإدراك والوعى ، وأعنى العقل والقلب ، كل منهما يجيب على طريقته وبأسلوبه ووسيلته . . . فالعقل قبل أن يبدى رأيه سيبحث ويلاحظ ويقارن ويستنتج . سينظر إلى الطير وهو يبنى عشه هذا البناء المحكم ، وإلى النحل وهو يقوم بأعماله العجيبة فى الخلية ، ويتساءل فى أى مدرسة يتعلم الطير والنحل هذه الأعمال البارعة ؟ . . فيجيبه الملاحظة ان الطير والنحل واكثر الحيوان والحشرات لا تتعلم ولا تتدرب ، ولكنها تولد وفى أعماقها هذه المعرفة المخزونة فيها — تلك التى تسمى الغريزة — فتدفعها دفعا وتحركها تحريكا لصنع هذه الأعاجيب . . . عندئذ يتساءل العقل : والأنسان ؟ لماذا يولد ولا يستطيع هو أيضا أن يبنى بيته الجميل ويغرس بستانه الرائع

بغير تعليم ولا تدريب ؟ . . ما بال الأنسان يولد عاجزا حتى عن المشى والـكلام ولا يختزن فى جوفه حضارته كالنحل والنمل؟ ما باله يولد متروكا لنفسه ، مجردا من الغرائز الانشائية ، محتاجا إلى اكتساب معارفه بنفسه خطوة خطوة ؟ . .

نعم ، الحيوان يولد مكبلا بالمعرفة المتحجرة أى الغريزة ، والانسان يولد مجردا . . . أى حرا ! . . وعليه هو ان يكتشف المعرفة من جديد ، فى كل مرة يولد ، . . . إن المعرفة المتحجرة عند الحيوان ، تلك التى تولد معه ، هى معرفة مفروضة عليه فرضاً ، لا يستطيع أن يتجنبها ولا أن يحيد عنها ولا ان يبدل أو يغير فيها ، ولا أن يجدد فى لبها أو شكلها . . . ان خلية النحل هى خلية النحل منذ وجد وإلى ان ينقرض . وليس فى مقدور النحل أن يصنع خلية على صورة أخرى ، أو يمتنع عن صنعها عامدا أو يعيش ليصنع شيئا آخر . . .

تلك هى الجبرية التى لا حرية معها .

أما الأنسان فلم يفرض عليه نوع من المعرفة يقيده ويكبله ويجبره على صنع شيء بعينه طول حياته، على نحو خاص لا يملك أن يتجنبه أو يغيره أو يحيد عنه ... إن النحلة تولد وهى تعرف بالضبط ماذا هى صانعة فى حياتها لأن مهمتها معروفة محددة .

أما الطفل فيولد ولا أحد يدرى ماذا هو صانع فى حياته لأن مهمته ليست معروفة ولا محددة كمهمة النحلة والنملة ... بل ان سلوكه فى الحياة هو الذى سيحددها .

يستنتج العقل إذن من هذه الملاحظة والمقارنه الجبرية التى فرضت على النحل والنمل لأداء عمل معين على وجه معين، لم تفرض على الأنسان الذى ترك حرا يواجه مصيره ...

ولكن هذه الحريه التى تركت للأنسان، هل هى مطلقة ؟.. هل هى مقيدة ؟..

ربما استطاع العقل ان يوافق بلسان العلم - وهو أحد

مولوداته وأدواته — على أن حرية الأنسان مقيدة ، قياسا على حرية الحركة بالنسبة إلى المادة .. فقد قال لنا « نيوتن » ومن قبله « جاليليو » ان الجسم المتحرك يظل يتحرك فى اتجاهه الا إذا تدخلت فى ذلك قوى خارجية .. ذلك قانون القصور الذاتى المشهور بالنسبة إلى المادة ، وقد يصح أيضا بالنسبة إلى حرية الأنسان ... أى ان حرية الأنسان تظل تتحرك فى اتجاهها إلا إذ تدخلت فى أمرها قوى خارجية ...

وهنا ينبغى ان نسأل العقل أو العلم هذا السؤال المعضل ما هى هذه القوى الخارجية ؟ ..

فى نظر القلب أو الأيمان الجواب بسيط ... ولكن العقل سيحاول ان يبحث عن الجواب فى عالمه المادى دائما ... أى أنه سيتحاشى الأقتراب من منطقة الشعور الآدمى الداخلى الذى لا يعلل بالمنطق . سيقول العقل ان القوى الخارجية هى مجموع الإرادات الأخرى المتعارضة

أو المقاومة ، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة . وسواء كانت فى مجتمع معقد أو مجتمع بسيط .

وقد يلجأ العقل إلى العلم ليعقد المقارنات بين قضايا انحراف الأبرة المغناطيسية، وبين انحراف الأرادة الأنسانية، وقد يشبه مجال حركة الأنسان فى مجتمعه بالمجال الكهربى المغناطيسى فى المادة ،ليخرج من كل ذلك بتفسير يقبله منطقه المادى للقوى الخارجية المؤثرة فى حركة الحرية البشرية .

وقد يقتنع العقل . وحتى إذا لم يقتنع فهو سيمضى يتصيد الأدلة والبراهين داخل نطاق عالمه المعهود .

أما القلب فهو مقتنع بغير دليل ولا حاجة إلى الأدلة فى عالم القلب والأيمان . لأن الدليل هنا مفسد للأقتناع . بل ان الأقتناع نفسه ليس من وظيفة القلب . لأن معناه أنه جاء بعد شك . والقلب لا يشك لأنه لا يفكر . . انه يشعر . . . إنه فجأة يضىء كمصباح الكهرباء .

فالقلب الأنسانى يشعر أحيانا شعورا لا تعليل له بأنه ليس

وحيدا ولاحرا فى هذا الوجود . ألا يحدث أحيانا أن تشعر كأن شخصا ما فى مكان ما ينظر اليك . فأذا رفعت رأسك وبحثت وجدت فعلا ان شعورك صادق ؟ ألم تلاحظ مرة أو مرتين فى حياتك أن حادثا معينا وقع لك فى ظرف معين فغير مجرى حياتك على وجه معين . وتحاول ان ترد ذلك إلى المصادفة فتعجز ، لأن تلك الإرادة الخارجيـــة تدخلت بصورة منظمة منسقة تنم على وعى يعقل ما يفعل ويعنى ما يريد ، لإحـداث نتائج مقصودة بالذات ، ماكانت تحدث لولا هذا التدخل الذى لم يكن متوقعا ؟ ارادة خارجية لها كل عناصر الإرادة الرشيدة الذكية تهبط على ارادتك العادية فتغير اتجاهها وترسم لها طريقا جديدا ؟ . . ان عقلك احيانا مهما يبلغ فى منطقه من الصلابة والدقة ، ليأبى ان يخضع مثل هذا الحدث للتفسير العقلى المعتاد بالسهولة المعتادة . . .

ان المناصرين للعقل والعلم يكتفون فى مثل هذه الحالة بهز رؤوسهم ! . .

أما المكابرون والمتعصبون فهم ماضون فى الانكار لأن العقل وحده عندهم هو الإله .

أما أنا فأعترف بالعقل والعلم وحرية الإنسان . ولكن لا يمكن أن أنكر القلب والايمان . إنى لا أعيب على العقل أن يشك .. ، لأن وظيفة العقل هى الشك .. أى الحركة ... فإذا انقطع عن الشك فى بحوثه وقوانينه ، ووقف عن الحركة فى تقليب الحقائق والنتائج فقد شل عمله وانتهى أجله .

أما القلب فوظيفته الايمان أى الثبات . فلنترك للقلب اذن أمر تلك الحقيقة الثابتة التى تستعصى على كل حل وتستبهم على كل تعليل ...

موقفى اذن من حرية الإنسان هو الآتى :

الانسان عندى حر فى اتجاهه حتى تتدخل فى أمره قوى خارجية أسميها أحيانا القوى الإلهية .. حرية الارادة فى الانسان عندى اذن مقيدة شأنها فى ذلك شأن حرية الحركة فى المادة ...

والحرية المقيده فكرة لا تروق لأكثر الأوروبيين اليوم لأنهم — كما قلت — قد ثقلت بهم كفة العقل والعلم والفكر التى تؤله الانسان وحده فى هذا الكون .

وقد تجلى ذلك فى تعقيب أولئك النقاد الذين أشرت إليهم فقد رأى أحدهم أن موقفى وان كان لا يتعارض كثيرا فى أحكامه النهائية ، مع ما جاءت به الأجيال العصرية إلا أنه يعبر عن عقيدة تهزأ بها أوروبا بغير حق — كما قال — هى مأساة الحياة تتكشف عن عجز الحرية الانسانية ...

على أن الحقيقة التى أحب أن تستقر فى وضعها الصحيح هى أنى « تعادلى » أى أن إرادة الإنسان فى كفتها تعادلها الإرادة الإلهية فى كفة أخرى ، والعقل البشرى فى كفة يعادله الإيمان . فى كفة ...

بهذا التعادل يعيش الإنسان ويعمل ...

غير أنى قبل أن أبلور أفكارى وأصوغها بما يطابق هذه النظرية « التعادلية » قد حاولت تفسير موقفى من حرية الإنسان

ووحدانيته . فقلت فى كتابى « فن الأدب » :

« هـذا الموقف من قضية العصر قد وقفته وتأملته . . فالانسان عندى ليس إله هذا العالم ، وهو ليس حرا . . ولـكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الارادة الالهية . . . هذه الارادة التى تتجلى للانسان أحياناً فى صور غير منظورة من عوائق وقيود على الانسان أن يكافح لاجتيازها والتغلب عليها . . . فأنبياء الشرق أنفسهم يبعثهم الله ويضع أمامهم العقبات . . . فطريق النبى ليس معبداً ، ولـكنه يجاهد فى تبليغ رسالته وسط أشواك من غرائز الناس . . . إن قضية العصر اليوم ، وهى التى تقوم على حرية الانسان سواء باعتباره فرداً أو باعتباره جماعة ، إنما تتحد وتتلاقى فى أمر واحد ، هو إنكار الله ، إنـكار القوى غير المنظورة التى تؤثر فى مصير الانسان . . .

على أن شعورى بعجز الانسان أمام القوى المؤثرة فى مصيره ليس مؤداه التشاؤم . . .

كما أنى لست أرى فى النظريات الأوروبية القائلة بحرية الإنسان أمام مصيره مايدعو إلى التفاؤل . . العكس هو الأصح . . فإن فكرة تأليه الإنسان وحده على هذه الأرض كانت فى رأيى من الأسباب التى أدت إلى كوارث العالم اليوم . . . فالإنسان الإله الحر الذى لا شريك له ولا سلطان لقدر عليه ، مع ماركب فيه من غرائز الحرب والكفاح . عندما جحد وجود غيره على الأرض وأنكر كل قوة غير قوته فى الدنيا ، لم يجد مايوجه إليه غرائز حربه ونشاط كفاحه غير نفسه ، فانقلب محارباً نفسه ، هادماً ذاته . . . فى حين أن فكرة الشعور بالقوى الأخرى التى تواجه الإنسان وتؤثر فى إرادته وحريته ، تدفع به فى نهاية الأمر إلى أن يحشد غرائز حربه ونشاطه وكفاحه ، لا ضد نفسه ، بل ضد هذه العوائق المستترة وهذه القوى الخفية . . . فالشعور بعجز الإنسان أمام مصيره هو عندى حافز إلى الكفاح لا إلى التخاذل . . « أهل الكهف » كافحوا ضد الزمن . . .

ولبث أحدهم متعلقاً بالحياة ، يقارع الزمن بسيف بتار هو « القلب » إلى آخر لحظة . . . و « شهر زاد » جاهدت محاولة أن ترد إلى الصواب زوجها الذى أراد أن ينبذ أرضه وآدميته ، وأن تعيد إليـه إيمانه ببشريته . . . و « سليمان » جاهد ضد إغراء القدرة التى كادت تخرس صوت الحكمة . . . وهكذا كان الانسان عندى يجاهد دائماً ضد العوائق الخفية التى شعر بتأثيرها فى حريته وإرادته ومصيره . . .

لو اتجه تفكير الأدب الأوروبى المعاصر إلى هذه الوجهة ، ودعا إلى حشد قوى الانسان ضد القيود الخفية التى تكبل حريته الحقيقية ، لـكان فى هذا النوع من التفكير بعض الحل لأزمة الانسانية فى العصر الأخير . . . فأزمة الانسان اليوم هى حربه ضد نفسه . . . فهو ليس له قريع آخر غير نفسه لم يعد فى غروره يرى سوى حريته المطلقة . . . لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة ، التى تحرك وجوده وتلعب بمصيره ، وتستوجب نضاله وتتطلب تفكيره . . . . »

الأدب الأوروبى فى هذا العصر لا يريد إذن أن يقف من الانسان موقفاً صريحاً صادقاً . فالباس الانسان على هـذه الصورة ثوباً مسرحياً من قدرة وحرية لا حد لهما ، ووضع هالة الألوهيـــة هكذا فوق رأسه . تبرق بأشعتها الصناعية . . . كل هـذا الخداع . . شأن كل خداع . . مهما يكن من سلامة دوافعه وأهمية أهدافه . فإن له من العواقب ما يهدد بصيرة الانسان .

الآن وقد كشفت لك عن رأيي فى وضع الأنسان من الكون، على أساس انه يعقل وجود الأرقى ويشعر به، ويدرك انه حر الارادة فى نطاق إرادة خارجية عليا.. فلننتقل إلى وضع هذا الأنسان فى المجتمع بحالته هذه وإدراكه هذا...

ما هو المنتظر من هذا الأنسان أن يصنع؟ إنه كما ذكرت ليس كالنحلة ركب فيها عملها من البداية إلى النهاية... لا.. انه أعطى آلة مفكرة قابلة للنمو، وآلة شاعرة قابلة للنمو أيضا... وهذا كل شيء...

ماذا يصنع؟.. وفى أى طريق يسير؟.. لا بد له من هداية. لا بد له من نموذج... هذا النموذج هو إدراكه للأرقى، هذا الأدراك للأرقى هو دليله الذى يقوده فى طريق الحياة الأنسانية... هو حافزه للتطور...

هذا الادراك للكائن الأرقى ليس عندى مجرد عقيدة دينية ، بل هو ضرورة انسانية . شأنها فى ذلك شأن الضرورة الحيوانية التى تحمل الحيوان على إدراك الأقوى .

فإدراك الحيوان لوجود الأقوى هو الذى يحمله على اكتشاف منابع قوته الذاتية ، وتنميتها وإعدادها لساعة المواجهة واللقاء . . . ولو فرضنا أن حيوانا عاش وحده فى جزيرة نائية ، اطمأن فيها إلى وجوده ، ولم يشعر بقوة فيها غير قوته ، التى لا يرى حاجة إلى استخدامها أو مقارنتها بأخرى ، لكان من الجائز ان تضمر هذه القوة فيه وتضمحل . . . فالشعور بوجود الأقوى ينشط القوة . كذلك الشعور بوجود الأرقى عند الأنسان ينشط الرقى . .

إن نظرية التطور عند لامارك وداروين وسبنسر لن تصح فيما يتعلق بالأنسان إلا إذا أدرك وجود الأرقى . . . فنمو عقله وقلبه رهن بهذا الإدراك . . طبقا للقاعدة التى تقول بتطور العضو تبعا للوظيفة . تلك هى الضرورة

الأنسانية التى ارتبها على اعتقاد الأنسان بأنه ليس وحده فى الوجود . . . هذه الضرورة التى تحمله على اكتشاف نفسه ، وارتياد منابع قواه الذهنية والروحية وتنميتها وإعدادها لمواجهة تلك الأسرار والقوى الخفية التى تبهر عقله وتخلب لبــه . . . وهو فى هذا الكشف والارتياد والتنمية يتغير ويتطور ويسمو على ذاته طبقة بعد طبقة . . . فردا ومجتمعا . . .

والأنسان قد تطور فعلا بناء على هذا الإدراك للأرقى بعقله وقلبــه . ثم وقف تطور الأيمان القلبي ، كما ذكرت ، واستمر التفكير العقلى يتطور وحده فى قفزات باهرات ، جعل العصر الحديث ينسى النموذج الأصلى وهو الكائن الأرقى أو فكرة الله ، ولا يرى غير العقل المنتصر بمفرده . . .

هـذا الاختلال فى التعادل بين تطور الفكر وتطور

الأيمان ، قد عرقل سير الأنسان فى طريق الرقى الـكامل ، كما عرقله أيضا اختلال آخر فى التعادل بين تطور الفرد وتطور المجتمع ...

قلت لك إن الانسان ليس خاضعا للجبرية التي تخضع لها النملة والنحلة . فهو قد خلق حرا يتكيف عمله ويتحدد اتجاهه ؛ تبعا لظروف اتصاله بالحياة ومهما يكن من أمر وجود القوى الأخرى التي تؤثر في إرادته ، فأن هذا التأثير لا ينفي عنه صفة الإرادة الحرة في كثير من أوضاعها .

وما دام الانسان حر الأرادة ولو بعض الحرية ، فهو اذن مسئول . لأن المسئولية تنبع من الحرية . فالنحلة أو النملة ليست مسئولة عن عملها لأنها خلقت به . أما الانسان فلم يخلق بعمله . فهو إذن مسئول عنه .

وإذا ذكرت مسئولية الانسان منذ القدم ذكر الخير والشر . لأن الخير والشر هما الموجب والسالب في كهرباء العلاقات البشرية . والخير والشر في رأيي لا شأن لهما بالانسان الفرد . ولا وجود لهما إلا بالمجتمع فلو فرضنا وجود شخص

منعزل فى جزيرة ، ليس فيها غيره وغير أشجار فاكهة يطعم منها ، فان الخير والشر لا يوجدان فى هذه الجزيرة . فإذا فرضنا أن شخصا آخر هبط عليه ، وعاشا معاً ، فأن الخير والشر يولدان ليعيشامعهما . فقد يحدث ان يقطف احدهما ثمرة شهية يطمع فيها الآخر فيختلسها منه أو يغتصبهالنفسه . وقد يحدث ان يمرض احدهما فيقوم الآخر على خدمته ومعونته . فالخير وهو الفعل الإرادى الذى يؤدى إلى نفع الغير ، والشر وهو الفعل الإرادى الذى يؤدى إلى ضرر الغير ، لا يوجدان إلا بوجود الغير . فلا بد اذن من وجود الغير أو بعبارة أخرى المجتمع حتى يوجد الخير والشر . فالخير والشر لم يولدا مع الأنسان ، ولكنهما ولدا مع المجتمع أو على الأصح بعد ميلاد المجتمع . وأقصد بالمجتمع هنا مجرد اجتماع شخصين فأ كثر . وهنا يصح أن نسأل : أيهما ولد قبل الآخر ؟ الخير أو الشر ؟ . . فى رأيي أن الشر والخير كالليل والنهار يتعادلان ولا ندرى أيهما أسبق . . . وقد يكون الشر هو

الأصل فى الأنسان، لأنه متصل بالوعى الأساسى للإنسان: وهو الشعور بالذات ، وحب هـذه الذات . . . فحب الذات الغريزى فى كل الموجودات الحيـة ومنها الأنسان ، يدفعه إلى إرضاء هـــذه الذات ولو أدى ذلك إلى إيذاء الغير . وكلما كان المجتمع بدائيا همجيا انطلقت هذه الأثرة الغريزية على فطرتها غير مبالية بضرر الغير . ولـكن المجتمع فى تطوره نحو النظام رآى أن ضرر الغير لا بد أن يوازن ويعادل بفعل آخر هو : نفع الغير . وكلما ارتقى المجتمع اتخذ نفع الغير وضعاهاما من أوضاع السلوك العام ، فمجد الخير وحقر الشر . لأن المجتمع يعلم ان الخير فى حاجة إلى دعوة وتشجيع لأن حب الغير اشق واصعب عند الانسان من حب النفس فالخير وليد الروح والتهذيب، ولـكن الشر وليد الغريزة والطبع وكان من أثر هذه الدعاية بصورها المغرقة أن وضعت العلاقة بين الخير والشر وضعاً مصطنعاً أدى إلى انشطار المجتمع إلى أخيار وأشرار، وأبرياء ومجرمين .

وهذا التقسيم ليس فى مصلحة الأنسان ولا المجتمع .

ذلك أنه يحفر هوة وهمية بين الأنسان والأنسان . ويصم طائفة من المجتمع بوصمة سوء عرفية لا تزول عنهم أبدا . وهذا مع ما فيه من الحاق الشلل والعقم بجزء من جسم المجتمع ، فأنه مخالف لحقائق الأشياء . . . لقد لاحظ أحد النقاد الأجانب أن مسرحى يقوم على أشخاص تتحد مراكزهم لا بالنسبة إلى الخير والشر ، بل بالنسبة إلى الحقيقة والواقع وهذا صحيح . فأنا لم أبرز قط أشخاصا ينتمون إلى الخير مطلقا أو إلى الشر مطلقا . فأنا أرفض هذه الفكرة ، ورفضتها دائمـــا فى كل ماكتبت . بل إنى رفضت فكرة الثواب السماوى للخير المطلق . . . راجع قصتى « طريد الفردوس » . . . لأن الأنبياء والرسل أنفسهم تعرضوا لعتاب الله ، ولا يمكن أن يعاتب الله على الخير .

فالإنسان عندى قيمة ثابتة ، تلحق بهـا أحوال متغيرة من الخير والشر والصحة والمرض . وأن من يأتى عملا يضر

الغير ، يستطيع أن يأتى عملا ينفع الغير . وهو لذلك ليس خيرا ولا شريراً ، ولا صحيحا ولا مريضاً ، فى أحواله العادية ، إنما هو موضع تتعادل فيه وتتوازن هذه الحالات المختلفة المتغيرة . فهو يكون فى حالة مرض ولكنه يعمل للشفاء أى للاقتراب من حالة الصحة . ذلك أن الإنسان باعتباره قطعة من عالمه المتحرك ، ما يكاد يقع فى حالة حتى يبدأ فى التحرك نحو الحالة المقابلة أو المعادلة . وهو لا يبقى فى حالة واحدة طويلا إلا بوسائل صناعية . فمن بقى فى حالة الشر أكثر مما ينبغى واستمر يضر الغير ، فإن ذلك فى أكثر الأحيان راجع إلى أن المجتمع سد فى وجهه طريق الانتقال إلى الحالة المعادلة التى تتيح له فعل الخير . لذلك أرى أن فكرة الخير والشر يجب أن تتغير فى نظر المجتمع. وأن المجتمع يجب أن يقف من مرتكب الشر لا موقف المنتقم ، بل موقف المطالب بحالة التعادل ، أى بفعل الخير وعلى هذا الأساس يجب أن تتغير فكرة العقاب . فمعاقبة

مرتكب الشر بحبسه . أى بحرمانه من حريته فكرة خاطئة فحرية الإنسان يجب أن تبقى له . وثمن الجريمة يجب أن يدفع لا من حرية الانسان ، بل من عمل إيجابى يوازن ويعادل العمل الذى ارتكبه . إن من يرتكب الشر أى من يقوم بالعمل الارادى الذى يؤدى إلى ضرر الغير ، يجب أن يدفع الثمن بعمل إرادى يؤدى إلى منفعة الغير . اما أن يؤدى المذنب الثمن بمجرد حرمانه من التدخين أو الطعام أو الاتصال بأهله وذويه ، فهذا إجراء سلبى لا يعود على الغير بفائدة ، ويعود على المذنب بشر العواقب ، فهو يفقده آدميته ، ويقلبه وحشاً بشرياً يتدرب فى سجنه وقفصه على التنمر للمجتمع الذى وصمه بوصمة الاجرام . وهذا ما يفسر لنا كيف نجحت السجون وتنجح فى مختلف الأمم - مهما يبلغ رقيها - فى تخريج طراز خطر ماهر مدرب من المجرمين المحترفين . ذلك أن فكرة العزل عن المجتمع . تحمل فى نفسها خطرها على المجتمع . . . فالمجتمع الذى يدفع عن حظيرته

شخصا ولو لمدة محدودة يقلبه فى الحال عدوا ناقما .
وأن فى طرد مرتكبى الشر بعيداً عن المجتمع ، وتجميعهم فى مكان واحد ، لمما يربطهم جميعا برباط واحد، ويجعلهم يكونون فيما بينهم مجتمعا آخر ، تسوده تعاليم أخرى معادية لتعاليم المجتمع الذى طردهم . وهكذا تتم عملية الانشطار بين أهل المجتمع الواحد ، وينقسم الناس إلى أخيار وأشرار بحكم القانون والعرف ، لا بحكم الواقع والحقيقة . ذلك أن من بين أفراد المجتمع مذنبين ومرتكبى شر لم يقبض عليهم ولم يقعوا تحت طائلة القانون ، استمروا فى حياتهم العادية بين أهلهم وذويهم ، يتحركون فى المجتمع بكامل حريتهم وحقوقهم يصنعون الشر مرة والخير مرة ، إلى أن تتغلب حالة على حالة ، فيظهر خيرهم ونفعهم للناس فيرضى عنهم المجتمع ، أو يظهر شرهم وضرهم للناس فيطالبوا بتقديم الحساب . وهذا الحساب هو وحده الذى يجعل منهم المجرمين المحترفين مادام يتخذ شكل الحبس الذى أشرنا إليه ، أى القفص الذى

تتدرب فيه الوحوش على صقل مخالب الأجرام .

والرأى عندى هو إعادة النظر فى طريقة الحساب والعقاب، فيما عدا عقوبة الاعدام للقتل العمد فهى لا بد أن تبقى . لا على أنها عقوبة . بل لأنها وضع طبيعى . فطبقاً لمذهب التعادل: لا شىء يعادل حياة الانسان غير حياة الانسان . أما بقية الجرائم التى يعاقب عليها عادة بالحرمان من الحرية أى بالحبس والسجن فهى التى يجب أن تتغير وتوضع على أساس جديد . على أساس المعادلة لا بين الحرية والشر . . . بل المعادلة بين الخير والشر . . . أى من يرتكب فعلا يضر الغير يجب أن يعادله بفعل ينفع الغير . وعلى هذا الوضع يجب أن تلغى السجون ، ويقام بدلا منها مصانع وأدوات إنتاج . فمن فعل شراً بالمجموع عليه أن ينتج خيرا يفيد المجموع دون حاجة إلى أن يطرد من مجتمعه أو يقصى عن أهله وذويه ، أو يحرم من حريته فى ممارسة حياته العادية . كل ما يطلب منه هو أن يؤدى ثمن الشر الذى ارتكبه من انتاجه . يجب أن ينتج

لحساب المجتمع ما يعادل فى الزمن والكم جسامة الشر الذى صدر منه . هذا الحساب الايجابى المنتج أفيد وأنفع للمجتمع من السجن السلبى العقيم . وهو فضلا عن ذلك مبق لكرامة المذنب ، لأنه يبقية بين مجتمعه وأهله ، أى فى البيئة الصالحة لتوبته وتحركه فى اتجاه الخير . . .

ووجود الخير والشر يؤدى إلى وجود الضمير . والضمير خاص بالانسان . لأن الخير والشر لا يعرفهما الحيوان . فالحيوان قد ينفع ويضر ، ولكن بالفعل الغريزى لا بالفعل الإرادى .

ومتى انتفت الإرادة ، انتفت المسئولية ، ومتى انتفت المسئولية عن الخير والشر انتفى معناهما . والضمير كالخير والشر لا بد لوجوده من وجود الغير أى المجتمع فالانسان الفرد المنعزل فى جزيرة نائية يعيش بدون ضمير ، لأنه يعش وحده بدون خير وشر وغير ولكن ما هو الضمير ؟ . . أهو مجرد الشعور بأن الشر شر والخير خير ؟ . بماذا نصف شعور الارتياح عند من يقتل أخذا بالثأر ، وهو يعلم أن ما فعل شر ؟ أو شعور الرضا عند من يسرق ثريا ليمسك رمقه ؟ . لا بد من وجود عنصر ضرورى فى

الشعور حتى يوجد الضمير . هذا العنصر هو الاحساس الذاتى بالذنب هو إحساس مرتكب الشر بأنه أحدث بالغير ضرراً جديراً بالأصلاح . الضمير هو إذن شعور الذات بشر لحق الغير لم يقدم عنه حساب . ذلك أن المذنب الذى يعاقب على ذنبه أو يكفر عنه التكفير الكافى لا يسمع فى أعماق نفسه صوتاً للضمير . فالضمير لا يتكلم إلا ليذكر بالمديونية قبل الغير أو بعبارة أخرى يذكر النفس أن الشر الذى ارتكب يجب أن يعادل بخير . هذا الشعور بالتعادل يسمى فى عرف الأخلاق بالعدل . فالعدل هو المظهر الأخلاقى للتعادل : والضمير إذن هو الشعور بالعدل ، أو على الأصح : شعور الذات بعدل لم يتحقق نحو الغير .

والضمير كما يوجد عند الفرد يوجد عند المجتمع . فالمجتمع يتولد فيه أيضا شعور بأن عدلا لم يتحقق نحو الغير ، أى نحو طائفة منه لحقها شر بفعل طائفة أخرى . وهنا تقوم الثورات الاجتماعية لتصحح الوضع وتعيد حالة التعادل ، التى

تسمى العدالة أو العدل الاجتماعى .

فى محيط « الأخلاق » الضمير ـ الفردى أو الاجتماعى ـ هو الحارس المنوط به الصياح لطلب العدل أى التعادل .

أما فى محيط السياسة والاقتصاد فإن الحارس هو القوانين الآلية التى تعمل من تلقاء نفسها ، كما تعمل قوانين الغريزة فى محيط الحيوان والنبات .

ففى السياسة الدولية لا بد دائما من توازن أى تعادل بين القوى . وقلما حدث فى تاريخ الأمم أن انفردت طويلا دولة واحدة بالقوة فى العالم . حتى يوم كادت الدولة الرومانية أن تسيطر بمفردها على الدنيا انشطرت هى نفسها إلى قوتين ، إحداهما فى روما بزعامة أكتافيوس والأخرى فى الاسكندرية بزعامة انطونيوس . ثم حدث لها نفس الأمر فى العهد المسيحى ، حيث قامت الدولة الرومانية الغربية فى روما ، والدولة الرومانية الشرقية فى القسطنطينية . وهكذا وهكذا ..

وفى السياسة الداخلية لا بد دائما أيضا من توازن أى

تعادل بين قوة الحاكم وقوة المحكوم . حتى فى عهد السلطان المطلق فإن قوة المحكوم كانت تجد لها منفذا وسبيلا من خلال رجال الدين أو رجال الفكر . فلما استطاع الشعب فى العصور الحديثة أن يحكم نفسه بنفسه ، انشطرت قوته نفسها إلى قوى مختلفة فى صورة أحزاب تتوازن وتتعادل كى تحتفظ بوجودها الضرورى للتعبير عن إرادة من تمثلهم من طوائف الشعب . فإذا تغلبت طائفة فى النهاية وابتلعت كل ما عداها من الطوائف والطبقات واتحدت فى قوة واحدة تشمل الدولة كلها فإن هذه القوة أيضا لا تلبث أن تولد قوة أخرى خفية تعارضها وتجاهد فى الظهور . وقد تخنق وتكبت وتهزم وتخفق ولكنها لا بد يوما أن توجد ، لأن قانون التعادل الذى نرى مظهره فى الشهيق والزفير هو الذى يعمل هنا أيضا ونرى مظهره فى وجود حركة توازن حركة . . . لأن هذا هو شرط الحياة . . .

أما فى الاقتصاد فقانون التعادل صارم فى عمله . فلابد

أن يكون هناك توازن بين العرض والطلب ، كالتوازن بين الشهيق والزفير ، فإذا زاد العرض زيادة فاحشة على الطلب انعدمت قيمة السلعة ، وإذا زاد الطلب زيادة فاحشة على العرض ، ارتفع السعر واختنق السوق ، وكان لابد من عودة التعادل بوسيلتين : إما بالمبادرة إلى زيادة العرض فيعتدل السعر وتعود الحركة الطبيعية للسوق ، وإما أن يتعذر إيجاد العرض ، فيظهر قانون آخر هو قانون التعويض ، خلاصته أن سلعة أخرى متشابهة إلى حد ما فى الوظيفة للسلعة النادرة تحتل مكانها عوضا عنها فى سوق العرض .

كذلك الحال فى الميزان التجارى ، وفى التعادل بين الصادرات والواردات ، وفى معادلة الميزانيات بين الأيرادات والمصروفات وهكذا وهكذا ... ما الاقتصاد الا تعادل بين عوامل مختلفة تتحرك طول الوقت فى الكيان المالى للأفراد والأمم ، وإذا اختل هذا التوازن فترة ، فلابد أن يعادل نفسه بنفسه بقوانينه الذاتية .

وللتعادل أداته الفعالة التى يستخدمها دائما فى كل محيط : سواء فى العلم أو فى الأخلاق أو فى الفن أو فى الفكر أو فى السياسة أو فى الاقتصاد إلخ . . . هذه الأداة هى ما يسمى برد الفعل . كل فعل فى كل محيط له رد فعل . وما رد الفعل هذا سوى آلة التعادل للفعل إذا أسرف وجار واختل توازنه وجاوز حدوده . رد الفعل أو بعبارة أخرى : رد التعادل إلى الفعل الذى انحرف إلى مداه ونهايته . . . ذلك هو معناه الحقيقى .

فالتعادل إذن يعمل بجهاز ذى محركين . رد الفعل والتعويض . ولعل مظاهر التعويض من أوضح ما يصادفنا فى الكائنات جميعا . فكل ضعف تعوضه قوة . وكل نقص تقابله زيادة . فالنحلة رقيقة الجناح ولكنها حادة الأبرة . والثقيل فى الوزن والجسم غالبا ما يكون خفيف الظل والروح ، والفقيرة فى جمال الوجه أو الجسد أو الشكل كثيرا ما تكون غنية فى جمال النفس أو الخصال أو العقل . وهكذا وهكذا ... ذلك أن

التعادل لا بد ان يتم على أى حال . فكل فعل لا بد له من رد فعل . وكل ضعف لا بد له من قوة مقابلة . وكل نقص لا بد له من زيادة معادلة . فالشر والضعف والنقص والقبح . . . حالات فى الكائنات لا يمكن ان تقوم بنفسها دون وجود اضداد تعادلها . وكل المشكلة هى أن الكائن العاقل وأعنى الأنسان ، هو وحده الذى يجهل أحيانا تلك الحقيقة ، فإذا لحقته حالة من تلك الحالات ، وقع فى اليأس ، فلم يسع الى اكتشاف القوى المعادلة الموجودة لديه وهو لا يدرى . فى حين أن الكائن الغريزى أى الحيوان أو النبات لا يقعد يائسا ولا جامدا ، بل يدرك بمعارفه الغريزية اين يجد قواه المعادلة .

أشرت منذ لحظة فى صدد الحديث عن التعادل بين قوة الحاكم وقوة المحكوم — إلى رجال الفكر ، باعتبارهم المنفذ الذى تتسرب من خلاله قوة المحكوم فى عهد السلطان المطلق. وهذا قد يدعوك إلى التساؤل : ما هو الفكر وما هو السلطان؟ للأجابة عن هذا السؤال يجب أن نتصور مرة أخرى ذلك الرجل المنعزل فى الجزيرة النائية . هذا الرجل كيف يقضى حياته ؟ إنه ولا شك يعمل فى نهاره ليوفر لنفسه المأكل والملبس والمأوى فهو يقطف الثمر من الشجر ، ويصنع من الأغصان كوخا ، وينسج من بعض الألياف ثيابا . . . أى أنه يباشر العمل الضرورى لحياته المادية . فإذا جاء وقت الراحة واضطجع فى الظل الوارف ،وارسل بصره الى السماء الصافية بدأ يفكر فى حاله قائلا لنفسه : وبعد ؟ . . من أنا ؟ . . وما معنى حياتى ؟ . أهى تسرنى ؟ . . نعم ان حولى اشياء

جميلة ؟ . . ماهو الجمال ؟ . . هو ادراك لخلق اعجب به . . . وما دمت قد وعيت الأعجاب فأنى اشعر بوعى آخر هو التمنى . . . انى اتمنى ان اكون على صورة تعجبنى . . . تملؤنى اعجابا . . . صورة أفضل . . . مادمت قد وعيت الأفضل لى . . . فحاضرى اذن لا يعجبنى تماما . . . اذن أنا انتقد وضعى . . . على أى صورة أفضل أود اذن أن أكون ؟ . . هذا الكوخ أولا يجب أن يصير متسعا مرتفعاً ، لأشرف منه على البحر . . . وهذا البحر يجب أن اسبح فيه . . . فلأصنع اذن قاربا . . . فاذا صنعت القارب فانى أستطيع ان احيط بالجزيرة وأعرف كل شواطئها ، وقد اتمكن من استكشاف جزيرة أخرى قريبة إلخ . . . هذا هو التفكير . . . وقد يؤدى هذا التفكير الى العمل . فينهض هذا الرجل فى اليوم التالى ليحقق بالفعل كل أو بعض ما فكر فيه . وقد يصادف من العوائق والصعوبات مايصرفه عن تحقيق أفكاره ، فيكتفى بعمله اليومى المعتاد ويجلس يسخر من تفكيره ، ويهزأ

بتبرمه ونقده لوضعه . وهكذا : إما ان ينجح الفكر فى توجيه العمل ، وإما ان ينجح العمل فى خنق الفكر .

فاذا فرضنا ان رجلا آخر قد هبط الجزيرة . وأصبح فى الجزيرة رجلان أى مجتمع صغير . وكان احدهما أقوى عملا والآخر أقوى فكراً . فما الذى يحدث ؟ . مامن شك فى أن أحدهما سيؤثر فى الآخر . وهذا التأثير سيختلف فى المدى والصفة تبعاً لسلطان كل منهما . فإما أن يظهر سلطان العمل فيخضع الفكر لإرادته . وإما أن يظهر سلطان الفكر فيوجه العمل حسب مشيئته . وإما أن يحتفظ كل منهما بسلطان معادل تجاه الآخر ، فيكون التوازن الذى يحد من انفراد أحدهما بالسيطرة انفراداً طاغيا .

فإذا انتقلنا من المجتمع الصغير فى هذه الجزيرة إلى المجتمع الكبير فى الأمم والشعوب ، فإننا نجد الصراع بين هاتين القوتين ، قوة العمل وقوة الفكر ، يحتل الجزء الأكبر من تاريخ البشرية . فالعمل من قديم ممثل فى السلطة المادية التى

تتولى أمور الناس بالفعل . والفكر يمثل فى السلطة الروحية التى تبصر وتنقد وتفتح للناس الآفاق التى يمكن أن يمتد إليها التطور الإنسانى .

ولعل أول مظهر للسلطان العملى هم الملوك ، وللسلطان الروحى هم رجال الدين . والصراع بين السلطانين معروف من قديم . أما رجال الفكر من فلاسفة وشعراء وعلماء وأدباء وفنانين ، فإنهم لضعفهم وفقرهم وتفكك الرابطة بينهم ، قد اضطروا فى العصور القديمة إلى خدمة الأقوى والأغنى وهم الملوك . وبقى رجال الدين يصارعون إلى أن ضعف سلطانهم بضعف سلطان الدين نفسه ، وخاصة فى العصور الحديثة . على أثر التقدم العلمى ، وركود التجدد الروحى . على أن التقدم العلمى أو العقلى قد رد إلى رجال الفكر سلطانهم المفقود ، فبدؤا يظهرون بمظهر القوة المستقلة فى إطار الديمقراطية التى أضعفت الملوك ، ونورت الشعوب ومكنتها من اقتناء الآثار الفكرية . وضمان العيش لرجال الفكر .

فالعصر الحديث إذن لم يعد عصر الصراع بين الملوك ورجال الدين .

فما الذى حدث اليوم لقوة العمل وقوة الفكر ؟ . إن الأجابة عن هذا السؤال تلخص كل روح العصر الحاضر . فقوة العمل اليوم يمثلها حكام من صميم الشعب ، يصلون إلى السلطة عن طريق الأحزاب والانتخاب . وسواء أكان الحكم فى أيدى أحزاب متعددة تتناوبه ، أم فى يد حزب واحد يسيطر وحده . فإن الشعوب الآن هى التى تحكم نفسها بنفسها . وعندما يقال إن شعبا يحكم نفسه فمعنى ذلك بالطبع أنه اختار حكامه من أبنائه . وهؤلاء الأبناء هم الذين تتركز فيهم قوة العمل .

على أن هذا الوضع الحديث لم يغير الشعور الخفى الذى يكنه العمل نحو الفكر . فقوة العمل التى تمثل « التنفيذ » تخشى وتكره دائما قوة الفكر التى تمثل « النقد والتوجيه » . إن « العمل » فى كل زمان يحاول أن يلزم « الفكر »

بالطاعة . فى عهد الملوكية يوم كان رجال الدين هم القائمين بمهمة النقد والتوجيه لسلطان الملوك ، كان الملوك يجاهدون دائما لخفض هذه الأصوات المرتفعة إلى جانب إرادتهم ، فتارة يرغبون ويستميلون ، وتارة يهددون ويخيفون ، وتارة يستولون عنوة على القوة الروحية ويعلنون أنهم هم الرؤساء الحقيقيون للدين .

فى العصر الحديث يتعرض « الفكر » لعين الخطر ، ولكن فى صورة جديدة . فالحكم الديمقراطى أو الشعبى لا يستطيع فى كل الأحوال أن يخفض صوت « الفكر » الحر قهرا وغصبا . ولكنه يستطيع أن يلغى وجوده إلغاء بأن يستدرجه استدراجا إلى حظيرة السياسة العملية . ومتى دخل رجل الفكر تلك الحظيرة فقد بطل نقده وتوجيهه وتفسيره وأصبح منضما إلى نظام معين ، يسير فى اتجاهه ويعمل بتعليماته ويخضع لارشاداته . وبذلك يتجنب الحزب السياسى فكرا طليقا مناهضا لارادته ، ويكتسب جنديا مطيعاً يأتمر بأوامره .

وهذا الاستدراج للفكر كى يقع فى حظيرة العمل ، يتم فى العصر الحديث بواسطة شباك وفخاخ صنعت بمنتهى البراعة : شباك وفخاخ فى صورة نظريات أدبية وفلسفية تؤدى كلها فى النهاية إلى أن يلتزم الفكر بالعمل التزاماً يضر بمقومات حياته ، أو يخضعه له اخضاعا يقضى على كيانه الذاتى .

وبعض الواضعين لهذه النظريات من رجال الفكر أنفسهم لم يقصدوا الأضرار بالفكر، ولكنهم انجرفوا تحت تأثيرات مختلفة . منها حنين بعضهم إلى العمل ، حنينا أفقدهم الثقة فى قوة الفكر الذاتية . خصوصا فى عصر بلغت فيه المادية أوجها . وعصفت فيه الحروب بالقيم ، وزلزلت النظم ، وتغلغلت آثارها المدمرة فى نفوس الأفراد والجماعات ، وأصبح لكل شخص على الأرض مشكلة يريد لها حلا ، وأسئلة ينتظر عنها جوابا . وأحس رجل الفكر أن مهمته قد ازدادت عبئا ، ومسئوليته قد ثقلت وزنا ، وخشى أن يكون القلم فى يده غير كاف ولا شاف . . .

هذا الايمان المزعزع بقوة الفكر قد دفع بعضهم إلى الانخراط فى سلك حزب من الأحزاب ، فانقلب بذلك إلى رجل عمل ، وانقلب فكره داعية لحزبه كما دفع بعضهم إلى الحيرة بين الأحزاب المختلفة . والنضال فى الميادين المتعددة ، يتقاذفه القلق وخيبة الأمل ، إلى أن ينتهى به الأمر إما إلى تأليف حزب خاص يحبس فيه فكره ، وإما إلى تأجير الفكر أو التبرع به للخدمة فى كافة ميادين السياسة والحكم . . .

فى كل هذه الصور ، ما ارتفع منها فى المعنى وما انخفض نرى رجل الفكر قد ضعف وشك واستسلم وترك مكانه هلعا . وجرى ينضم تحت راية السلطة العملية . وبذلك هرب من رسالته الحقيقية . تلك الرسالة التى تعتبر «الفكر» قوة مستقلة معادلة وموازنة ومراقبة لقوة «العمل»

وهذا التعادل بين القوتين يبطل إذا ابتلع أحدهما الآخر والخوف دائماً على الفكر منذ القدم . لأن العمل أى الحكم

هو الأقوى . وهو الذى اعتاد أن يبتلع الفكر .

فواجب رجل الفكر إذن أن يحافظ على كيان الفكر وأن يصون وجوده الذاتى حراً مستقلا ، وأن يصمد به فى وجه كل عدوان لأنه هو الضمان الوحيد على هذه الأرض الآن تجاه انحراف قوة العمل الانحراف الطاغى المدمر .

لكن هل معنى حرية الفكر واستقلاله أن ينفصل وينعزل ، كما يتهم أحيانا ؟ . . لا . . . استقلال الفكر شىء والانعزال شىء آخر المنعزل لا يتأثر ولا يؤثر ، فهو شىء غير كائن بالنسبة إلى الغير أى المجتمع . والفكر الذى ينعزل عن العمل شأنه شأن الفكر الذى يبتلعه العمل . كلاهما لا وجود له . إنما المقصود باستقلال الفكر هو أن يكون له كيان خاص وإرادة خاصة فى مواجهة العمل ، حتى يستطيع أن يتأثر به ويؤثر فيه .

قد تسألنى : ولماذا نفصل الفكر عن العمل ؟ ألا يمكن أن يندمجا ويتحدا ؟ . .

جوابى أن هذا مستحيل .

لأنهما عندما يندمجان ويتحدان يصبحان شيئا واحداً هو : العمل .

ولنضرب مثلا بسيطا : أنت تفكر فى السفر إلى الريف للنزهة . فإذا سافرت بالفعل فقد انقلب تفكيرك إلى عمل . وإذا لم تسافر فإن الذى حدث هو التفكير . فإذا اندمج التفكير واتحد مع العمل، فمعنى ذلك أنك سافرت أى أصبح الفكر عملا . أى أنه لم يعد هناك تفكير وعمل . بل عمل فقط . . . لأن التفكير انتهى . . . ابتلع فى جوف العمل .

قد تقول : إن كل عمل هو إذن نتيجة تفكير سابق؟ . . .

هذا صحيح .

العمل هو تفكير تحجر ونفذ . . . أو إرادة تجمدت فى وضع نهائى . والفكر هو إرادة حرة سائلة قابلة للتحرك والتكيف والتطور .

فأنت عندما تفكر فى السفر إلى الريف للنزهة تستطيع

أن تغير هذه الإرادة وتحركها وتطورها كيفما شئت . . .

ولكن إذا تحولت هذه الإرادة إلى عمل وتم السفر فإن الفكرة التي كانت طليقة قد تحجرت بمجرد تنفيذها .

فالعمل إرادة تجمدت وتقيدت والتزمت بوضع خاص .

فالالتزام إذن من صفات العمل .

والحرية من صفات الفكر .

والفكر الذى يلتزم ينقلب إلى عمل .

وهذا بالضبط هو الذى يحدث فى الأحزاب السياسية والاجتماعيــة . فالبرنامج الحزبى أى المذهب السياسى أو الاجتماعى هو فكر تقيد أى التزم به الحزب .

فانضمام رجل الفكر إلى حزب من الأحزاب معناه تقيده والتزامه بتفكير الحزب . وهذا الالتزام يناقض الحرية التى هى جوهر رسالته الفكرية . لأن التزامه بمذهب حزبه يحرمه مباشرة سلطة الفكر فى المراقبة والمراجعة . هذه السلطة الحرة التى هى أساس مسئوليته الحقيقية . وهو

بذلك إما أن يخضع ويرضخ . لحزبه وينزل راضيا مختاراً عن وظيفة رجل الفكر ويصبح رجل عمل . واما أن يصر على الصمود والاحتفاظ بسلطة وظيفته الفكرية ويناقش أفكار حزبه ويوجهها ويطورها بمطلق الحرية التى تخولها له مسئولية رجل الفكر الحر ، وعندئذ سيجد نفسه مفصولا عن الحزب ومطروداً أو مضطهداً . . .

على أن ضعف أغلب رجال الفكر فى العصر الحاضر ، وانهيار إيمانهم برسالتهم وقوة تأثيرها ، قد ربط الفكر فى عجلة العمل ، وجعل الأقلام فى خدمة الحكومات . واختل بذلك التوازن والتعادل بين القوتين .

ولعل اختلال التعادل بين قوة الفكر وقوة العمل هو من أسباب الكوارث التى تهدد هذا العصر الحديث . فإن طغيان قوى العمل فى هذا العالم وانحرافها نحو الاستعباد والاستعمار والسيطرة وإثار الحروب المدمرة ، دون أن تجد أمامها قوى روحيـــة أو فكرية معادلة تتكتل

لردها إلى الصواب . هو ولا ريب من أهم مصـــادر
القلق الذى يخيم على الدنيا ، ويملأ النفوس بشعور
من ينحرف سريعا إلى هاوية . . .

عرفنا اذن قطبي النشاط الأنساني وهما: الفكر والعمل. وقلنا لماذا يجب ان يحتفظ كل منهما. بقوته الذاتية في نظر المذهب التعادلي حتى يتم بينهما التوازن، لأن هذا التوازن هو الذي يكبح جماح كل منهما، ويحول دون طغيانه المفسد لكيان البشرية.

ولنقصر الحديث الآن على الفكر وعلى الأخص الناحية التي تهمنا منه هنا: وهي الأدب والفن.

هنا أيضا نجد «التعادلية» تقيم الأدب والفن على أساس قوتين يجب ان يتعادلا هما: قوة التعبير وقوة التفسير. فالأثر الأدبي أو الفني لا يكتمل خلقه ولا ينهض بمهمته إلا إذا تم فيه التوازن بين القوة المعبرة والقوة المفسرة.

ما هو المقصود بالتعبير هنا؟ أهو الشكل؟.. لا... إنه ليس الشكل فقط. انه شيء أكثر من ذلك. ولأضرب

لك مثلا بسيطا : فلنفرض انك سمعت نادرة من النوادر يلقيها شخصان. احدهما متكلم عادى. والآخر محدث لبق موهوب. هذه النادرة الواحدة تتخذ عندئذ مظهرين مختلفين. فهى فى الحالة الأولى تبدو مجرد حادثه. أما فى الحالة الثانية فتبدو هذه الحادثة نفسها وكأنها لونت واضيئت وتحركت بحياة نابضة، لا تدرى من اين أتتها ولا كيف نفخت فيها. تلك هى قوة التعبير. انها ليست فقط طريقة الأبراز والأظهار. لأن هذه الطريقة لا تقوم وحدها بغير الحادثة التى فى جوفها. فالتعبير اذن ليس مجرد الشكل بل هو الشكل والموضوع معا. هو الشكل والشيء الذى يتشكل فيه. هو النادرة والأسلوب الذى رويت به. فالأسلوب وحده بغير النادرة لا يعنى شيئا فى ذاته ولا يعبر عن شيء. فالتعبير اذن يستوجب وجود الاسلوب وموضوعه معاً. لأن التعبير عن شيء يحتم وجود الشيء.

وقــوة التعبير هى أيضا توازن وتعادل بين قوة

الأسلوب وقوة الموضوع .

فأذا طغى احدهما على الآخر فانك تشعر فى الحال ان الوضع غير طبيعى فالأسلوب البارع والموضوع التافه يثيران فى النفس احساسا بالتكلف . وكلمة « التكلف » هنا ليست مجازا ولا مجرد وصف ادبى . بل هى ذات مدلول يكاد يكون ماديا . فان الاديب أو الفنان الذى يحتفل احتفالا بالغاً بأبراز موضوع هزيل ، انما يتكلف فعلا أمرا لالزوم له . كمن يرتدى ثياب السهرة ليجلس بمفرده فى حجرته يتعشى بكسرة خبز ! . . فعدم مراعاة مقتضى الحال تكلف . والتكلف فى الأسلوب قبح كما هو فى الحياة . لأن شرط الجمال الفنى ان يثير فى النفس احساساً بأنه منبثق من نبع طبيعى . ومهارة الفنان هى فى احداث هذا الشعور الطبيعى دائما . فاذا أحس الناس منه ان جماله خارج من نبع صناعى فقد أخفق .

كذلك الحال إذا طغى الموضوع على الأسلوب .

فالموضوع العظيم فى الشكل السقيم يثير فى النفس احساسا بالتحسر . كمن يصوغ اللؤلؤة فى خاتم من الصفيح . اختلال التعادل إذن فى الحالين بين قوة الاسلوب وقوة الموضوع يحدث الشعور كذلك بأن الوضع غير طبيعى . .

قد تسأل : ما هو الأسلوب فى الأدب والفن ؟ وما هو الموضوع ؟ . . الأسلوب هو طريقتك الخاصة فى الظفر بأعجاب الغير وشعوره وفكره ، ليرى ما ترى ، ويحس ما تحس ويفهم ما تفهم .

وهذه الطريقة فى الأدب والفن مردها إلى الاستعداد الفطرى والدرس الاكتسابى والاجتهاد الشخصى . فلا بد من بعض الهبة . ولا بد بعد ذلك من الدرس الطويل لمعارف الأعلام واساليبهم من الأقدمين والمحدثين ، ولا بد أخيرا من تصرفك الخاص لتلائم وتوازن بين المحاكاة والابتكار . فان المحاكاة اذا غلبت عليك فأنت لم تضف شيئا إلى من سبقوك ، وإذا أسرفت فى الابتكار فقد قطعت

tradition x individual talent

الصلة بينك وبين الآخرين ، وانفصلت حلقتك من سلسلة التطورات الطبيعية فى حياة الأدب أو تاريخ الفن . هكذا فعل شكسبير وبتهوفن فيما قاما به من محاكاة وابتكار . . .

أما الموضوع فى الأدب والفن . . . فهو كل ما تستطيع أن تثير به اهتمام الناس ، على نحو غير مسف ولا فارغ ولا مبتذل.

وليس للموضوع العظيم أو التافه شروط معينة أو معالم محددة . فتقديره متروك لعبقرية الأديب أو الفنان . فقد يتناول بمواهبه السحرية موضوعا نحسبه تافها ، فإذا هو يخلق منه بقلمه أو ريشته أو مطرقته أو ألحانه شيئا يثير اهتمام الناس فى جيله وفى جميع الأجيال . فالموضوع لا تتحدد صفته العظيمة أو التافهة إلا بعد أن يصب فعلاً فى الأثر الأدبى أو الفنى . فالوردة أو الآنية أو التفاحة قد تكون موضوعا تافها أو عظيما تبعا للفنان الذى يتناولها . أى تبعا لدرجة خبرته وإحساسه وقدرته على النفوذ إلى حقائق الأشياء ، أو تبعا للطريقة التى يختارها الفنان . فموضوع « هاملت » كان

من الممكن أن يبق موضوعا تافها عاديا لو عالجه شاعر عادى . وموضوع « هاملت » نفسه كان يمكن أن يصبح فى خفة موضوع « زوجات وندسور المرحات » لو أن شكسبير اختار أن يجعل منه مسرحية ضاحكة عابثة بدلا من تلك المسرحية الفكرية الجليلة . وشكسبير كان يدرك بسليقته الفنية معنى التعادل بين الأسلوب والموضوع فكان إذا أراد الجد اتخذ اسلوبه ما يناسب ذلك من العمق . وإذا أراد الهزل خف أسلوبه فلم يثقله بكنوز فكره . كان إذا أراد للفكر أن يتألق كالجوهرة كى يضىء حقائق الكون صاغه فى معدن نفيس من أسلوب عميق . وإذا أراد للنفس أن تضحك لتلهو ساعة عن تعب الحياة استخدم معدنا رقيقا من أسلوب خفيف.

ولو أنه صنع العكس ، وكتب « هاملت » بأسلوب « زوجات وندسور المرحات » لكان كالصائغ الذى لا يستطيع أن يلائم بين الجوهر والخاتم . والمقصود بالأسلوب هنا ليس بالطبع اللغة وحدها . بل ما تحمله اللغة فى جوفها من

ألوان الصور والأفكار . وأسلوب الفنان بمعنى الطابع واحد بلاشك فى سمته العامة . ولكنه يتغير فى درجة الدسامة أو الكثافة تبعا لألوان الطعام الفنى التى ينتجها. فطابع «شكسبير» واحد فى فنه ، ولكن درجة الدسامة فى أسلوبه تختلف باختلاف أنواع مسرحياته كذلك طابع « بتهوفن » واحد فى موسيقاه ،ولكن درجة الدسامة تختلف فى بعض السنفونيات عنها فى بعض السوناتات .

وهذه الدسامة والرقة والعمق والخفة حالات تتعاقب على الفنان ، تعاقب الليل والنهار والخريف والربيع ، دون أن تخضع لترتيب منطق . فقد يرى البعض أن المنطق يقضى أن يبدأ الفنان حياته بالخفة وينتهى إلى العمق . ولكن هذا المنطق لايخضع له الفنان . فشكسبير بعد أن بهرنا بعمقه فى « هاملت » أضحكنا بخفته فى « العبرة بالخواتيم» وبتهوفن بعد أن وضع فى سانفونيته الخامسة العظيمة روح الفلسفة ،تجده قدمزج سانفونيته الثامنة الرقيقة بنسيم الخفة ، فالفنان لا يسير

دائماً فى خط مستقيم . والتطور عنده ليس الانتقال المباشر من حسن إلى أحسن أو من عميق إلى أعمق ولكنه كالطبيعة يتطور من خلال التجربة الذاتية تبعا لقانون الفعل ورد الفعل . أى من خلال تجارب متباينة تكشف عن امكانيات الذات فى اتجاهاتها المختلفة . والفعل ورد الفعل هما أداة التجربة الكاشفة عن الأمكانية ، لا عند الأنسان وحده ، بل عند الكائنات جميعا . فالشجرة تنتقل من الاخضرار فى الربيع إلى الذبول فى الخريف ، ثم تعود إلى الإخضرار ، ثم إلى الذبول ، وهكذا دواليك . . . وقد يبدو فى ذلك أنها تدور حول نفسها ولا تتحرك ، ولكن هذه الحركة حول نفسها هى فى ذاتها دليل الحياة ، وهى القوة الدافعة إلى الأمام بعد ذلك ، أى إلى التطور من خلال الأجيال الأخرى المتعاقبة فى الأشجار . كذلك الحال فى حياة الأرض والكواكب ، فهى لا تسير فى خط مستقيم على نحو مباشر . بل تدور أولا حول نفسها ، ثم حول الشمس ، ولكنها مع

ذلك تسير فى الفضاء إلى الأمام فى إطار المجموعة الشمسية بأكملها . كذلك الحال أيضا فى الأنسانية . فإن الحضارة فيها يتقاذفها الفعل ورد الفعل ، فتقع حينا فى الظلام ، ثم تعود إلى النور ، فى حركة كحركة الليل والنهار ، ولكنها مع ذلك تسير . . . فكلمه التطور إذن لا تعنى عند الطبيعة والبشرية والفكر والفن ، السير إلى الأمام سيرا مطرداً مباشراً ، ولكنه التقدم خلال اختبارات وعقبات الفعل ورد الفعل . فنحن جميعا من بشر وأرض وكواكب نسير ونحن ندور ، ونصل إلى الغد عن طريق دورة الليل والنهار وتعاقب الظلام والنور . . . فكرة التطور على هذا الوجه تجدها فى مسرحيتى « شهر زاد » .

ومع ذلك ، من يدرى حقيقة ما نسميه النور والظلام والارتفاع والانخفاض والعمق والخفة والدسامة والرقة؟ . لعلها كلها ، على اختلافها ، حركات ضرورية لتكون الحياة حياة . ولعلها كذلك فى محيط الأدب والفن ، هى العناصر

الضرورية التى يتألف منها « التعبير » .

فملكة التعبير عند الأديب أو الفنان لايمكن أن تظهر كل أشعتها وألوانها وأنغامها إذا لعب بها على وتر واحد. مهما يكن هذا الوتر قويا بليغا صافيا نقيا . ماذا كنا نفضل ؟ وماذا كان يفضل الفن الأنسانى ؟ أن يخرج لنا شكسبير كل مسرحياته على نسق « هاملت »؟أسلوبا وفكرا وارتفاعا؟. أويلون لنا كل هذا التلوين فى التعبير ، فيجد مرة ويهزل أخرى ، ويعبس ثم يبسم ، ويرتفع ثم يتبسط . ويطرق متأملا ثم يقهقه ضاحكا ، ويكون تارة فيلسوفا وتارة مهرجا. وحينا شاعرا ، وحينا ساخرا . . . إن عظمة شكسبير هى فى أنه استطاع أن يكون كل ذلك . وقدرته هى فى أنه ملك من أوتار التعبير مقدارا أخرج كل الألوان وكل الأنغام وكل الأصوات وكل الضحكات . . .

ذلك هو « التعبير » . . .

قوته ليست فى مجرد ارتفاعه بل أيضا فى اتساعه .

والتعبير من غير شك هو كل شيء في نظر الفن .

ولكن « التعبير » ليس كل شيء في نظر (التعادلية) فقوة « التعبير » عند « التعادلية » يجب أن تقترن في الأدب والفن بقوة « التفسير »

ما هو « التفسير » ؟ . .

هو الضوء الذي يلقى على موضع الأنسان في الكون والمجتمع .

فالأدب أو الفن التعادلي يجب أن تتوازن فيه القوة المعبرة والقوة المفسرة .

فالقوة المعبرة وحدها لا تكفي ، لأنها قد تكشف عن مجرد وجودها . ولكنها قد لا تشع ضوءا يكشف عن وجود غيرها . القوة المعبرة قد تكون جميلة في ذاتها كاللؤلؤة . ولكنها مثلها حبيسة جمالها ، لا تضيء غيرها . . إنها ليست كالماسة المتألقة التي تشع في الظلام أضواءاً تكشف عن وجود أشياء أخرى .

والأديب أو الفنان قد يعبر عن الحياة ولكنه لا يفسرها.

أى أنه قد يجيد وصفها بالحالة التى هى عليها ، أو يجملها بوشى مصطنع ، أو يقبحها بتشويه مقصود ، وهو فى كل هـذه الأحوال يريد اللهو بأداة التعبير تارة ، أو استخدامها للدعاية تارة أخرى .

ولكن الوقوف عند حدود التعبير ليس كل مهمة الأديب أو الفنان التعادلى . لأن التعبير وحده على علو قيمته الأدبية والفنية ، قد يحبس أهداف الأدب والفن فى نطاق التهذيب الروحى والامتناع النفسى ومهما يكن من نبل هذه الأهداف وكفايتها ، فان المطلوب من الأديب أو الفنان ، خصوصا فى العصر الحديث ، أن تمتد رسالته إلى ابعد من هذا النطاق .

No Art for Art's Sake

المطلوب منه هو ان يهذب ويمتع ثم يلقى فى نفس الوقت ضوءا كاشفا موجهاً فى طريق الأنسانية .

educate while

فالأدب أو الفن يجب ان يكون معبرا ومفسرا . . أى ان تتعادل قوى التعبير وقوى التفسير فى الأثر الأدبى أو

الفنى . فاذا طغت قوة التعبير طغيانا بالغا فأن قسطا هاما من رسالة الأديب أو الفنان لم يبلغ للناس . وإذا طغت قوة التفسير حتى كادت تتلاشى بجانبها قوة التعبير ، فأن صفة الأدب أو الفن ذاتها تهدد بالأنهيار . اذ لابد لوجود أى أدب أوفن من ضمان قوة التعبير قبل كل شىء . فموهبة التعبير الأدبى أو الفنى ، اى بالاختصار ، الأديب أو الفنان يجب أن يوجد أولا بأداة أسلوبه الرائعة البارعة القوية قبل النظر فى أمر الرسالة التى سيحملها .

التعبير يشمل الاسلوب والموضوع اى الشكل والمضمون. وبه يمكن ان يتم الاثر الأدبى أو الفنى فى ذاته .

أما التفسير فهو الرسالة التى يحملها الأثر الأدبى أو الفنى بعدئذ للبشرية ، ليقول فيها كلمته عن وضع الأنسان فى كونه وفى مجتمعه .

وليس كل أثر أدبى اوفنى يحمل تفسيرا أورسالة فى هذا الشأن . فكثير من الآثار رسالته هى فى مجرد روعة تعبيره .

فالبحترى مثلا هو تعبير . فى حين ان ابا العلاء تعبير و تفسير معا . لأن الكثير من شعره يحمل الينا رأيه فى وضع الأنسان ومصيره . وشكسبير هو فى شعره الغزلى تعبير ، أما فى مسرحياته مثل « هاملت » وغيرها فهو تعبير وتفسير معاً .

وبيتهوفن فى سوناتا ضوء القمر هو تعبير . بينما هو فى السنفونية الثالثة يحمل الينا كلمته فى الأنسان والبطولة ، وفى السنفونية الخامسة ينقل الينا قولته فى الأنسان والقدر . وكذلك فى السنفونية التاسعة ، وفى كثير من كونسيرتاته يريد ان يقول لنا شيئا اكثر من مجرد اللحن الجميل .

والتعبير وحده قد يؤدى إلى « الفن للفن » اذا أسرف فى الهيام بجمال الشكل والتأنق فى المبنى على حساب المعنى والمضمون .

والتعبير وحده كذلك قد يؤدى الى « الفن الملتزم » اذا اسرف فى التقيد بمعنى خاص ومضمون معين ليس الى التحرر والاستقلال عنهما من سبيل .

فالفن للفن هو حبس الفنان فى هيكل الشكل .

والفن الملتزم هو حبس الفنان فى سجن المضمون .

والسجن فى الحالين يمنع الفنان من تبليغ رسالته الكاملة . تلك الرسالة التى تنبع من الحرية دائما ، لتبشر بالحرية .

قد تسألنى بعد ذلك :

هل الحرية فى الأدب أو فى الفن مناقضة للالتزام ؟ . أليس للأديب أو الفنان أن يلتزم برأى يدافع عنه ويبلغه للناس ؟ .

وما دمنا نقول إن للأدب أو الفن المعبر المفسر رسالة يحملها للبشرية فكيف تكون رسالة بغير التزام بالتبليغ ؟

ما من شك فى أن مجرد حمل رسالة معناه التزام بتبليغها. ولكن الخلاف دائما هو فى مصدر الرسالة التى يحق للفنان أو الأديب الحر أن يحملها ؟

هل يحق للمفكر الحر أن يحمل رسالة تصدر من سلطة « العمل » ؟ فى هذه الحالة سيكون مجرد آلة مسخرة ، لا أداة مفكرة . وإذا آمن حقا بهذه الرسالة هل يجوز له الالتزام ؟ فى رأيى نعم .

ولكن من جهة أخرى : الأيمان الطويل الأمد هو بالنسبة

إلى الفكر عاهة . لأن الفكر السليم هو الفكر المتحرك . وحركة الفكر معناها حرية شكه وحرية الشك معناها حرية المراجعة للقيم والأوضاع .

فإلى أى مدى إذن يباح للمفكر أن يراجع الرسالة التى التزم بحملها ؟ . .

فإذا قيل له : لا تستطيع أن تراجع أو تناقش أو تتحلل مما التزمت به ، فمعنى ذلك هو إلغاء الفكر وتحويله إلى إيمان .

فنحن إذن أمام مشكلة .

لأن الالتزام الطويل الأمد برأى معين يؤدى إلى الأيمان . والأيمان يؤدى إلى تعطيل الفكر . والفكر يجب أن يتحرك ليوجد المفكر . والمفكر إذا فكر ناقش الالتزام وقد تؤدى مناقشة الالتزام إلى التحلل منه . . .

لذلك عندما ينبع الرأى الملزم من سلطة العمل أى سلطة حاكمة فإن مناقشة الالتزام لا تباح ولا تشجع ، فيصبح

الرأى شبه إيمان .

ولكن الأيمان فى الرسالات السماوية مقبول ، لأن الأمر كله متعلق بموضوع علوى بعيد عن متناول الفكر . فنحن عندما نؤمن بفكرة الله قد رضينا مختارين أن نلتزم بتعطيل التفكير فى ماهيته وفى حكمه ، واكتفينا بالأيمان ، لعلمنا أن فكرنا البشرى لا يصلح أداة لأدراك قوانين من هو فوق البشر .

ولكن السلطة الحاكمة أو السلطة الممثلة للعمل فى دولة من الدول ، لماذا نعطل أمامها فكرنا، ونلتزم برأيها مؤمنين بها الأيمان الذى لا يقبل التمحيص ولا المناقشة ولا المراجعة ؟ . . فالالتزام الدائم إذن برأى صادر من سلطة بشرية هو نوع من الأيمان لا يجب أن يفرضه بشر على بشر .

أما الالتزام المباح فى نظرى للمفكر أو الأديب أو الفنان فهو ذلك الذى لا يعطل تفكيره الحر ، ولا يمنعه من

أن يناقشه ويراجعه ويعدله فى أى وقت شاء ، سواء كان هذا الالتزام صادرا عن رسالة خاصة أورسالة عامة للدولة كلها أو لحزب فيها .

ولقد سبق لى أن عرضت موقفى تجاه الالتزام فى الأدب . فقلت فى كتابى « فن الأدب » : « إن الأديب يجب أن يكون حرا . لأن الأديب . إذا باع رأيه أو قيد وجدانه ذهبت عنه فى الحال صفة الأديب . فالحرية هى نبع الفن . وبغير الحرية لا يكون أدب ولا فن . . لأن الذى يقول لفنان أو أديب : التزم بكذا أو بكيت فقد قتله . إنما التزام الأديب أو الفنان شىء ينبع حرا من أعماق نفسه . فإن لم ينبع الالتزام حرا من قلبه وبيئته وعقيدته فلا تلزمه أنت ولا تلزمه قوة فى الوجود . يجب أن يكون الالتزام جزءا من كيان الأديب أو الفنان . . فالالتزام المثمر للفنان فى رأيى هو الالتزام الذى ينبع من طبيعته . وهنا لا يتعارض الالتزام مع الحرية . قد تسألنى عن مدى انطباق هذا الرأى على ما كتبت ؟

فأقول لك ارجع كذلك إلى كتابي «فن الأدب» فقد ذكرت فيه :
أن الموقف يختلف كل الاختلاف فيما يختص بانتاجي أنا على وجه خاص، فعلى الرغم من مناداتي بالحرية فإن عملي في أكثر كتبي هو من الأدب الملتزم . . اني منذ أمسكت بالقلم ما حاولت قط أن أنشيء لنفسي أسلوبا جميلا يتميز بجزالة اللفظ وحسن الديباجة مما يستهوي القارىء بحلاوة الجرس والرنين . . . هذا الفن للفن في الأسلوب ما خطر لي أن أمارسه ، ولكني أردت أن اتخذ من الأسلوب خادما لأهداف أخرى غير مجرد الامتاع . . . هذه الأهداف كما ظهرت واضحة للناس كانت قومية وشعبية وإصلاحية في « عودة الروح » وفي « عصفور من الشرق » وفي « يوميات نائب في الأرياف » وفي « مسرح المجتمع » الخ . . . وكانت مذهبية متصلة بمصير الانسان . . . في « أهل الكهف » وفي « شهرزاد » وفي « سليمان الحكيم » وفي « بجماليون » وفي « الملك أوديب » الخ . . . فهذه القصص لم تكتب لأظهار

جمال الأسطورة ، كما كتبت «مجنون ليلى» لشوقى ، فأظهرت جمال الشعر والعواطف والشعور ، وأبرزت روعة الفن للفن نفسه ، إنما كانت هذه الأساطير والقصص وسيلة لهدف آخر ، لا غاية فى ذاتها . . . قضية خاصة بالانسان ومصيره ؟ . . .

فأنا فى الحقيقة لم أكتب لأعبر فقط بل لأفسر . ولقد كان من الممكن أن تكون « عودة الروح » مثلا مجرد قصة تصور الحياة فى حى السيدة زينب بين أسرة متواضعة ، وتخلق أشخاصا نابضين بالحياة يعيشون فى صميم بيئتهم وفى هذا الكفاية من حيث الفن . لأن خلق الحياة هو عمل فى الفن كاف . ولكنى ألزمت نفسى بتفسير خاص للروح المصرية فلم تنته مهمة القصة عند حد التعبير والتصوير لبيئة وأشخاص ، بل اتخذت موقفاً ينم عن رأى معين وهذا الرأى استخلصه النقاد الأجانب من زوايا مختلفة وإن كان واحداً فى جوهره فالناقد « جان ديستيو » قال :

« إننا نلمس مؤلفا من تلك المؤلفات التي لو وجدت عندنا لنعتها « موريس بريس » بقصة النشاط القومى وليس لمدلولها غير تفسير واحد : هو أن الروح العائدة إنما هى روح فلاحى مصر العريقة فى القدم . » . وقال الكاتب اليسارى النزعة « مارسيل ما رتينية » : إنه لمن الظاهر فيه فضلا عن ذلك وجود بعض عناصر أدب « الطبقات الفقيرة » أوعلى الأقل أدب شعبي لاشك فيه . » وقالت الكاتبة « تيريز ميزبان » : « إن عودة الروح ليس مؤلفاً وليد الخيال ، ولكنه مستند على الحالة الاجتماعية لشعب فى حالة تطور تطور سريع . . . »

فعودة الروح ليست إذن قصة تصور حياة ، ولكنها بعد ذلك قصة تفسر حياة . وتفسير حياة شعب معناه اتخاذ رأى معين تجاه هذا الشعب . . . ولقد كانت لفكرة الرواسب القديمة التى تراكمت على مدى الحضارات المختلفة فى أعماق الشعب المصرى فكونت منه قدرة خفية تسعفه فى أزماته

وترد إليه روحه كلما استهدف لخطر التلاشي والانهيار . . .

هذه الفكرة التي اعتنقتها القصة كان لها أثر ، كما لاحظ بعض نقادنا ، في مجال « العمل » أي السياسة . هذا التفسير أيضا أي الرأي والموقف تجاه الحكام والمحكومين قد ظهر في « يوميات نائب في الأرياف » فهي ليست مجرد تصوير لحياة الفلاح ، ولكنها كما قالت صحيفة « سبكتاتور » الإنجليزية : إن في هـــذا الكتاب عن مهزلة الفساد الاجتماعي أكثر من مجرد استنكار ، وكما حدث مع كتاب الروس في القرن التاسع عشر وكما حدث مع كاتبنا « ديكنز » يشعر الكاتب المصري أن مجرد العطف لايكفي . . . الخ

من هذا التعليقات التي أذكرها ، تستطيع أن تجد جوابا عن سؤالك ، وتعرف اتجاهي من كتبي نفسها كما طلبت .

وهنا أذكر أيضا ملاحظة لأحدهم في تفسير مسرحياتي الذهنية بأنها تكشف عن عجز الانسان تجاه مصيره . فقد

رأى أن هذا الوضع للأنسان سبق أن أبرزه سوفوكل فى «أوديب» ابرازا صادقا، كما أظهره شيكسبير فى «روميو وجولييت» على أروع صورة. فالآلهة قد ارادوا عامدين ان يحطموا أوديب. والقدر تدخل تدخلا مباشرا على شكل مصادفات متلاحقة فرقت بين روميو وجوليت. ولكن الذى تم عندى فى رأيه هو أنه لم يحدث أى تدخل مباشر، لا فى هيئة ارادة علوية متعمدة، ولا فى صورة مصادفات طارئة، بل هى قوانين خفية تسير فى اتجاهها العادى، فتحد من إرادة الأنسان. فقانون الزمن فى «أهل الكهف» يعمل عمله المعتاد فيسير قدما ولا يغير اتجاهه، ولا يعود إلى الوراء ثلثمائة عام ليجمع بين مشلينا وبريسكا. فالقوة التى فرقت بين مشلينا وبريسكا ليست هى القوة القدرية المعاكسة التى فرقت بين روميو وجوليت، فجعلت المصادفة فى أول الأمر تدفع روميو إلى قتل ابن عم جوليت، ثم جعلت المصادفة فى آخر الأمر تحدث طاعونا يعطل الرسول الحامل إلى روميو

رسالة بما يدبر ، مما أدى الى المأساة . . كلا . . . ان المأساة المفرقة بين الحبيبين فى «أهل الكهف» هى قوة طبيعية . . . هى قوة الزمن أى المجتمع الجديد . . . فبريسكا أيقنت ان من المستحيل ان يقبل مجتمعها فكرة الجمع بينها وبين رجل عاش منذ ثلثمائة عام . . . قوة المجتمع هذه ظهرت كذلك عندى فى مسرحية «الملك أوديب» . فهو عند ما قيل له انه متزوج بأمه لم يتصور ذلك ، لانه لم يرها الا امرأة فى تمام نضجها فأراد أن يصمد كما أراد مشيلينا ان يصمد ، وان يتحدى وان يبقى على أسرته ، ولكن جوكاستا — شأنها شأن بريسكا — لم تستطع تحمل هذا الخاطر . . إن قوانين المجتمع المتأصلة فى أعماق كيانها قد حكمت عليها بالفناء فشنقت نفسها . . .

إرادة الانسان عندى إذن حرة فى حدود خاصة وهذه الحدود هى قوانين ، وليست إرادات طاغية . هى نواميس ، وليست مصادفات طارئة . . . فالانسان عندى عاجز حقا امام مصيره فى النهاية . . . هذا المصير الذى تدفع اليه قوانين

ونواميس يحاول دائما ان يتخطاها أو يحطمها . . . نعم . . .
ان من يمعن النظر فى هذه المسرحيات يجد مشلينا يحاول ذلك
ويمكت يكافح ليقنع بريسكا بتجاهل عقبة الزمن . . .
ونجد شهريار يحاول تحدى النواميس بمحاولة تحطيم بشريته . .
ونجد سليمان يحاول تحدى قانون الحب واقتحام قلب بلقيس .
وأوديب اراد تحدى المجتمع والبقاء مع أمه زوجا . وبجماليون
اراد تحدى الآلهة وتحطيم التمثال الذى أفسدوا فنه بما
نفخوه هم فيه من روحهم . . . جميع هؤلاء الأشخاص لم
يستسلموا لمصيرهم الا بعد التحدى والنضال والكفاح . لقد
ارغموا ارغاما على التسليم فى آخر الأمر . لأن القوى
المسيطرة ليست من صنع البشر . ولكن يبقى الكفاح — ولو
ضد المستحيل — وهو وحده واجب البشريه .

التفسير إذن فى الأثر الأدبى أو الفنى هو مناط المسئولية.
لأنه هو الرأى، وهو الموقف. ومادام هناك رأى، فهناك
التزام به، ومسئولية عنه.

أما التعبير فهو حر طليق كالحياة نفسها، مالم يقيد نفسه
كما قلنا بالمغالاة فى الشكل فينحرف إلى الفن للفن، أو يحبس
نفسه فى مضمون دائم معين بالذات فيصبح شأنه شأن الفن
الملتزم.

وهنا قد يخطر على بالك سؤال:

ماهو الفرق بين الالتزام فى التعبير والالتزام فى التفسير؟.
مادام كل منهما يمكن أن يؤدى إلى الفن الملتزم؟.

جوابى: هو أن الالتزام فى التعبير قد لا يعكس رأيا
خاصاً، فالموقف هنا هو مجرد الارتباط بموضوع بالذات.
كأن يعكف الأديب أو الفنان على تصوير طبقة معينة من

طبقات الأمة لايحيد عنها . ولكنك لا تلمس من خلال هذا التصوير والخلق فى هذه البيئة المعينة أى اتجاه شخصى أو رأى خاص . . . أعنى أى تفسير بعينه .

فى حين أن الالتزام فى التفسير لايتقيد بالموضوع . ولكنه يتقيدبالرأى. فالأديب أو الفنان هنا يعالج الموضوعات المختلفة ويصور الطبقات المتباينة، ولكنك تخرج من أعماله كلها بتفسير خاص أى برأى وبموقف وباتجاه . . .

وكما قلنا : حيث يوجد الرأى توجد المسئولية . . . ولكن المسئولية ، كما عرفنا ، لاتنبع إلا من الحرية . لأن المقيد غير مسئول .

فكيف نوفق إذن بين الالتزام والمسئوليةوالحرية؟ ..

لايمكن التوفيق إطلاقا إلا إذا كان الرأى رأيك أنت، والالتزام به نابعا من طبيعتك أنت، كما سبق أن قلت لك .. أى أن الرأى والالتزام يجب أن يكونا صادرين من صميم حريتك ، لتكون مسئولا عنهما مسئوليتك عن حريتك .

مسئولا أمام من ؟ . . . أمام نفسك وحدها التى منها خرج الرأى حرا . . .

وها هنا كل الجوهر فى كيان المفكر الحر .

الرأى رأيه ، ومسئوليته أمام نفسه .

فإذا كان الرأى صادرا من سلطة العمل أى سلطة الحكم ؟ وكانت المسئولية أمام هذه السلطة أيضا ؟ فما هو القول ؟ لا أقول سوى أن « الفكر » بمسئولياته يكون عندئذ قد نحى جانبا ، ليقوم « العمل » وحده بالأعباء والتبعات . ولقد قلتها فيما سبق : أن أزمة العالم اليوم مردها أن سلطة العمل قد اغتصبت المسئولية الكاملة فى إدارة دفة الدنيا وتوجيه مصائر البشر .

ما من أحد اليوم يستطيع الزعم بأن «الفكر الحر» هو الذى يوجه عالمنا الحاضر . لقد اضطهد علماء الذرة الذين رفضوا الرضوخ لأوامر السلطات الحاكمة ، رغبة منهم فى انقاذ البشرية ، ونزولا على حكم مسئولياتهم أمام أنفسهم .

وضمائرهم .

أما بقية العلماء والمفكرين فقد أذعنوا وسايروا وتعاونوا..

في كل دول الأرض نجد سلطة العمل متفاهمة متحدة في وضع واحد : هو اخضاع الفكر لخدمة أغراضها .

هذا الاتحاد والتفاهم من جانب « العمل » يقابله اختلاف وانشقاق في جانب « الفكر » . . .

ماذا لو استطاع « الفكر » في كل أمم العالم أن يتحد ويتفاهم ويوحد سلطانه ، ويقول كلمته الحرة في وضع البشرية ، ويحمل مسئوليته أمام نفسه وحدها ، ويرفض في وقت واحد ، في كل رقعة من الدنيا ، أن يتعاون مع سلطات العمل فيما يعتقد ويقرر أنه ضار بمصلحة الانسان والانسانية ؟ . . .

ماذا لو وقف الفكر كله في الدنيا كلها هـــذا الموقف الموحد ؟ أترك التقدير لك . . .

من هنا جاء اصرارى على احتفاظ سلطة الفكر بحريتها واستقلالها تجاه سلطة العمل، وقد طبقت هذا المبدأ حتى الآن على شخصى تطبيقا صارما. فابتعدت عن محيط السياسة العملية، ورفضت الانضمام الى الأحزاب السياسية واعتبرت المفكر كالراهب، مسوحه هى حريته. وتحدثت عن البرج العاجى والاعتصام به. ولم اقصد بذلك طبعا العزلة عن الحياة والانفصال عن المجتمع كما فهم البعض خطأ. ولكنى قصدت عزل رجل الفكر عن السياسة الحزبية، حتى لا يستخدم آلة مسخرة فى ايدى رجالها، فيفقد بذلك حرية النظر الحر الى الأشياء.

هذا الإصرار منى، على الرغم من الظروف المواتية التى عرضت لى مرارا للانخراط فى سلك حزب. والوصول به الى السلطان العملى، قد بلغ احيانا حد الغلو والإغراق. ولكن الفكرة التى استولت على رأسى، ولم

نزل ، هى ان مسئولية المفكر الحر الحقيقية انمـــا هى امام نفسه وحدهـا لا امام حزب من الأحزاب ولا حاكم من الحكام . وان المفكر الذى يترك مكانه لينضوى تحت لواء سلطة العمل الممثلة فى حزب أو حكم هو مفكر هارب من رسالته . وان هذا الهروب إلى معسكر الساسة والحاكمين هو الذى جرد الفكر من سلطانه ، وجعل منه تابعا لا متبوعا.

ولم يخطر فى بالى قط ان اعزل الفكر عن اى نشاط سياسى أو اجتماعى . فالعزلة التى دعوت اليها هى العزلة عن السياسيين لا عن السياسة ، وعن الأحزاب لا عن المجتمع . فالفكر فى كل ألوانه من ادب وقصص وفن يجب فى نظرى ان يعنى بكل مايجرى فى مجتمعه وعصره من شئون السياسة والاجتماع . لأنه ما دام يعنى بالبشرية ، ومادامت البشرية متصلة بالسياسة والمجتمع : فلابد للمفكر أو الأديب أو الفنان ان يعيش عصره كله ومجتمعه كله بما فيهما من شئون سياسية واجتماعية . لأن تلك هى البشرية . وفى كتبى : « تحت شمس

الفكر » و « شجرة الحكم و « تأملات فى السياسة » و « براكسا أو مشكلة الحكم » الخ ... خلاصة وافية لموقفى من السياسة والمجتمع .

قال احدهم ان موقفى لم يتخذ وضعاً عمليا .

وهذا صحيح . لأن هذا بالذات هو مذهبى . فمذهبى يرفض رفضا قاطعا ان يغير الفكر صفته ، وان ينقلب عملا .

وإنى حتى الآن لم افقد الأمل فى قوة الفكر . باعتباره سلطة مستقلة لها مقوماتها الخاصة وصفتها الذاتية . وعندما افقد هذا الأمل ، سألتمس فى الحال المعونة صاغرا لدى « العمل » . وعندئذ اسير فى اتجاه بعض المذاهب الادبية والفنيه التى خضعت للعمل أو اندمجت فيه ، فأصبح من العسير عليها أن تنفض عنها بعض غبار الدعاية أو التسخير الذى لحق بها بالباطل أو بالحق ...

قد تسألنى إلى أى مدى يستطيع الفكر المستقل ان يؤثر فى « العمل » ؟ ..

ما من شك عندى فى أن الفكر المستقل يؤثر إلى مدى بعيد فى « العمل » . . . أبعد بكثير من أثر الفكر المندمج أو الخاضع للعمل .

لأن الفكر المندمج أو الخاضع يصبح حزبا أو تابعا فى محيط الحكم السياسى ، وبذلك يفقد هيبته وكلمته لا فى نظر الأحزاب الأخرى ، بل فى نظر حزبه نفسه أحيانا . . فلا يسمح له بالتوجيه أو بالإيحاء ، بل يتلقى تعليمات رؤساء العمل للسير بمقتضاها . . .

قد تسألنى بعد ذلك : هل كان لموقفى المستقل أثر فى « العمل » ؟ . .

الحقيقة انى لا أستطيع أن أجيب بنفسى إجابة قاطعة فمن العسير على أن أعرف أثر كتاباتى فى الغير على وجه عام . ولا اعتقد ان كتابا مثل « يوميات نائب فى الأرياف » كان له أثر مباشر فى إصلاح بعض ما أبرزه من عيوب الحكم والقضاء والإدارة فى الريف . وإن كنت أعلم أن

كثيراً من رجال الدولة قد طالعوه .

على أن رأيي دائما فى رجال الفكر والأدب والفن انهم ليسوا مطالبين بالإصلاح المباشر إن مهمتهم الحقيقية هى أن يعدوا ويهيئوا رجال العمل والدولة والحكم للقيام بالإصلاح لقد قلتها يوما فى كتاب لى : « إن الأديب أو الفنان ليس مصلحا ، ولكنه مصلح المصلح »

غير انى استطيع رغم ذلك أن أقول انى رأيت مرة أثرا مباشرا لكتابتى فى أمر من أمور المجتمع . فقد كتبت ذات يوم اقترح انشاء وزارة لشئون المجتمع كما اقترحت اسماء وزراء بالذات من بين الموظفين الأكفاء ، فما انقضى شهران حتى تقلد الحكم رجل من رجال الدولة فنفذ الاقتراح وانشأ وزارة اطلق عليها اسم وزارة الشئون الأجتماعية ، واختار عين الموظفين الذين اقترحتهم ، وزراء فى حكومته .

كيف تم هذا ؟ . لا ريب ان استقلالى الفكرى يسر كل ذلك . فلو انى كنت كاتبا حزبيا لما أوحيت بهذه الثقة

ولكانت اسماء الذين اقترحتهم محل ظنون ، ولكان الاقتراح كله موضوع سخرية متحدية وريبة مستعلية . ان « الفكر » المستقل الحر يستطيع دائما ان يكون سلطة هامة معادلة وموازنة لسلطة « العمل » . وفى هذه الحالة يكون فى مقدور « الفكر » ان يصبح قوة دافعة وموجهة ومطورة لسلطان « العمل » .

هذا مذهبي .

قلت لك إن التعبير هو موهبة الخلق والأبداع .

وان التفسير هو الضوء الكاشف لوضع الأنسان .

ولأوضح مرة أخرى هذا التعريف :

إذا كنت تعبر عن الحياة ولا تفسرها ، فأنت أديب أو فنان .

وإذا كنت تملك تفسيرا للحياة ، ولا تملك موهبة التعبير عنها ، فأنت أى شيء إلا الأديب أو الفنان .

وإذا كنت معبرا ومفسرا للحياة ، فأنت أديب أو فنان ذو رأى وموقف واتجاه ، ومن ثم فأنت مؤثراً بطريق ما فى التطوير والتوجيه .

هناك مع ذلك حالات يستطيع فيها التعبير وحده ، إذا كان بالغ القوة ، أن يحدث أثراً موجها مطورا بطريق غير مباشر .

كما أن هناك ،كما سبق أن أشرت،حالات يفسد فيها التفسير روعة التعبير ، إذا خرج عن حدود التناسق الفنى ، وعندئذ يبطل تأثيرهما معاً ، لأن الأثر الأدبى أو الفنى يبدو عندئذ مفتعلا افتعالا مضيعا لجوهر وجوده وهو الصدق .

والمقصود بالصدق هنا هو الصدق الفنى ، أى الشعور المنبعث فى نفوسنا بأن الأثر الأدبى أو الفنى قد ولد ولادة طبيعية ، ولا يمكن بالطبع أن تكون الولادة طبيعية إلا إذا خرج الأثر الأدبى أو الفنى متناسق الأجزاء متناسب الأعضاء. فإذا طغى فيه جزء على جزء فإنه يعتبر مسخا مشوها ، حتى وإن كان جميل الوجه .

من أجل هذا كله كان الشرط الضرورى لحياة التعبير والتفسير معاً هو إيجاد التناسب والتناسق بينهما أى : التعادل .

قلت لك أيضاً إن سلطان الفكر يجب أن ينهض معادلا لسلطان العمل فما هو المقصود بالفكر هنا؟ هل هو العقل وحده؟ هذه نقطة تحتاج كذلك إلى توضيح. فالفكر المعادل والموازن للعمل إنما يشمل عندى القوى العقلية والقوى الروحية معاً. خصوصاً فى نطاق الأدب والفن. وهذه مسألة تختلف فيها المذاهب الأدبية والفنية المعاصرة. فأكثرها يطرح القوى الروحية أو الدين، ولا يستبقى غير القوى العقلية يستمد منها وحدها كل عناصر نشاطه من ذلك وجودية سارتر، والواقعية الاشتراكية، وغيرهما من المذاهب التى يصفونها بالمادية لأنها تقصر قوى الفكر فيها على العقل بمنطقه وحده.

أما التعادلية فتطلق «الفكر» على قوتين هما العقل والقلب، أعنى «المنطق» و «الايمان»، باعتبارهما منبعين للمعرفة البشرية. لأن الحيوان الذى لا يعقل ولا يؤمن

لا يملك غير منبع واحد للمعرفة هو الغريزة . والحيوان لا يؤمن لأنه ، كما أشرت ، لا يدرك معنى الأرقى .

فالانسان : الكائن الوحيد الذى يدرك ويعى الأرقى ، إنما يتوسل إلى هذا الإدراك والوعى بوسيلتين : المنطق المنبعث من العقل ، والأيمان المنبعث من القلب . الأول عكازه الدليل البين والآخر عكازه الشعور الخفى :

وما دامت هاتان الوسيلتان قد منحتا للإنسان ، فلا بد اذن من بقائهما وتقويتهما وإنمائهما والبلوغ بهما أقصى حدود القدرة ، كل منهما فى مجاله .

وقد سبق أن أشرت كذلك إلى أن الخلط بينهما عبث كما أن إخضاع كل منهما لمقومات غيره عبث أيضاً . فالعقل يجب أن يشك دائماً ويطالب بالدليل . والقلب يجب أن يؤمن دائماً ويعفى من الدليل . كل منهما يجب أن يجرى فى فلك مستقل ، وفى مجال نشاط مختلف ، فالقضاء على أحدهما لمصلحة الآخر تعطيل لإحدى ملكات البشرية . وتدخل

أحدهما لخنق حرية الآخر عرقلة أيضاً لسير الأنسانية .

والتعادلية ترمى إلى بقاء كل منهما موازنا للآخر ، كما يتوازن كوكبان يدور كل منهما حول نفسه ، ثم يسيران بعد ذلك معاً إلى الأمام فى عين المجرى . . .

ولقد سبق أن بينت فى كتابى « تحت شمس الفكر » فى فصل بعنوان « منطقة الأيمان » ، كيف أن العقل والأيمان يمكن أن يعيشا جنبا إلى جنب فى كيان الأنسان ، دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، أو يؤثر فى أسلوبه وهدفه .

وبأشعة العقل ومنطقه ، وحرارة القلب وإيمانه ، يستطيع الآدمى أن يحيا حياته الكاملة .

ولعل أزمة الحضارة الحديثة علتها كما قلت أيضا أنها لم تحقق للإنسان حياته الكاملة فهو على الرغم من تألق العقل البشرى على نحو لم يسبق له نظير ، يشعر بنقص ، وهذا النقص يبعث فيه القلق ، أو على الأقل بعض هذا القلق الذى أصبح من سمات هذا العصر الذى نعيش فيه .

والآن فلألخص لك التعادلية فى هذه المبادىء الخمسة :

1) أولا — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد . أن الوجود هو التعادل مع الغير . الأرض لا تكون بغير تعادلها مع الشمس . لا يوجد مخلوق وحده . كل كائن وكل صفة وكل حالة وكل وضع لا يوجد فى عالم المحسوسات ولا فى عالم المعانى إلا بالنسبة إلى غيره . لا بد من غيرك لتكون أنت . التعادلية اذن تقوم على الغيرية . والوجود التعادلى يتلخص فى هذه العبارة :

« بغير الغير لا يوجد وجود » .

2) ثانيا — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد أن الفكر يجب أن يكون معادلا للعمل ، وأن مسئولية « الفكر » هى فى حريته واستقلاله تجاه « العمل »

O.K. covered

وهذا مخالف لرأى المذاهب التى ترى اندماج الفكر فى العمل أو خضوعه له . فالتعادلية متفقة مع الوجودية ومع الواقعية

الاشتراكية وغيرهما من المذاهب التى ترتكز على مسئولية الفكر فى التوجيه والتطوير. ولكنها تختلف عنها فى أنها تدعو إلى استقلال الفكر عن العمل، ولا تبيح لرجل الفكر أن يندمج فى العمل، كما هو الحال فى وجودية سارتر، الذى عمل بنفسه مع زملاء له على تكوين حزب سياسى، كما عمل على مؤازرة أحزاب اليمين تارة وأحزاب اليسار تارة أخرى. كذلك لا تبيح التعادلية لرجل الفكر أن يخضع الفكر للعمل، كما هو الحال فى البلاد ذات النظم التى لا تسمح للفكر أن يتخذ رأيا أو موقفا لا يساير الاتجاه المرسوم.

أنت إذن تعادلى إذا كانت مسئوليتك هى أن تجعل من الفكر «قوة» حرة بأداتها المستقلة وأسلوبها الخاص لتعادل وتوازن قوة «العمل» بأداته وأسلوبه.

ثالثا — أنت تعادلى إذا اعتقدت أن الخير والشر وضعان للإنسان. وان الخير يجب أن يعادل ويوازن الشر وأن جزاء الشر ليس الاقتصاص من حرية الشخص. لأنه

لاموازنة بين الشر والحرية. إذ لاعلاقة البتة بينهما. إنما العلاقة هى بين الشر والخير. فالجزاء إذن هو عمل خير يوازن ويعادل ما ارتكب من شر. كما أن الضعف والنقص حالات لها كذلك ما يقابلها من قوى معوضة معادلة، على الانسان أن يستخرجها من مكامنها فى نفسها.

رابعا — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد أن العقل بمنطقه وشكه يجب ان يعادل ويوازن القلب بشعوره وإيمانه. أى أن الشك يمكن أن يعيش مستقلا موازنا للايمان.

خامسا — أنت تعادلى إذا كنت ترى أن الأثر الأدبى أو الفنى يجب أن يقوم على التعادل والتوازن بين قوة التعبير وقوة التفسير.

* * *

قد تسألنى: ما هو مستقبل الفكر المعادل للعمل؟

فأقول لك متفائلا. إنى أرى المستقبل كله له. لأن هذا هو الوضع الطبيعى. وإذا كنا إلى هذا العصر الحاضر

نجد الفكر تابعا للعمل أى السلطان ،فإن ذلك لن يكون فى الغد . فإنى أتنبأ للفكر فى العصور القادمة بقوة عظيمة تنبع من ذاته ، كما تنبع الطاقة من ضوء الشمش ، فتحرك بقوتها المركزة الذاتيةمصائر البشر نحو الأهداف العليا التى يرسمها الفكر ، بعيدا عن أغراض السلطان . . . ويكون له من النفوذ والايحـاء ما يرد سلطة العمل إلى الصواب إذا انحرفت وجارت . . . دون أن يفقد صفته الخاصة فينقلب عملا ، أو يتخذ أسلوب رجال السياسة فيصبح جدلا .

* * *

قد تسألنى كذلك : ما هو مستقبل التعادلية فى علاج الأنسان فأقول لك متفائلا أيضا :

إن التعادلية باعتبارها مذهبا يقاوم الضعف والعجز والنقص والقبح ، بأيمانها بوجود القوى المعوضة الموازنة أى المعادلة ، وبأعلانها طريقة واضحة للمقاومة ، هى نهوض الإنسان ، سواء كان فردا أو شعبا ، للكشف عن القوى

المعوضة المعادلة وإظهارها وتنميتها ... هذا المذهب يلغى أثر الضعف والعجز، عن طريق استخراج المعوض والمعادل. كل شعب أو مجتمع أو رجل أو امرأة أو فنان أو عامل أو أديب الخ ... يجب أن يسأل نفسه هذا السؤال، إذا أحس من نفسه عجزا طبيعيا أو نقصا خطيرا : ما دمت عاجزاً ضعيفا فى هذه الناحية، فلا بد أنى قوى قادر فى ناحية أخرى ... ما هى ؟ ...

لا يوجد إنسان ضعيف . ولكن يوجد إنسان يجهل فى نفسه موطن القوة المعوضة .

قم وقاوم .. وابحث عنها وكافح لأظهارها وتنميتها، لتعادل بها عجزك وضعفك ... يوم تنهض الأنسانية كلها تفعل ذلك ... كم من مناجم القدرة ستتفجر لتعوض عن مآسي العجز البشرى .

أما بعد . . فأظن انى قد أوجزت لك موقفى فى خطوطه الرئيسية . فاذا اردت تفصيلا فعليك ان تستخلصه بنفسك . وهذا ميسور لك اذا اعدت قراءة كتبي على هذا الضوء . ولا أقصد بالطبع كل ما كتبت . فما من كاتب يستطيع ان يتقيد فى كل اعماله بعين الفكرة . والا كان مجنونا . فالجنون احيانا هو الجمود على فكرة معينة . ولكنى اقصد الكتب التى تحمل رسالة الكاتب . وهى التى يجب ان تقرأ قراءة مستكشفة . وهذا أمر لا يستطيعه كل القراء . ومن هنا كانت القراءة فى بعض الأحيان فنا . بل اداء ايجابيا معادلا للكتابة . لأن القارىء المكتشف يخلق شيئا . . . شيئا موجودا من قبل ، ولكنه مجهول . وما قيمة الموجود ان لم يكن معلوما ؟ ؟ شأن القارىء المكتشف للمعانى والاتجاهات شأن الرحالة المكتشف للجزر والقارات . انها مخلوقة قبل

رحلته ولكنه هو الذى اخرجها من ضباب يشبه العدم الى نور اوجدها فى نظر الناس . لذلك كانت نعمة الكتب قراءها . وآفة الكتب قراءها أيضا . فمن القراء من يشبه البحار الجاهل الذى يسير بغير بوصلة ولا يعرف شماله من جنوبه ، ولا يحسن الا ان ينشر شراعه وينطلق فى بحره على غير هدى ، فأذا ضل لم يتهم جهله ، انما اتهم البحر وخلوه من الجزر والشواطئ . . . وقد لا يضل ، ولكنه يجول جولة خاطفة ثم يعود سريعا ليقول انه تنزه نزهة لا بأس بها ، ولكنه لم يصادف ما يسترعى الالتفات . على ان هناك نوعا من القراء اعجب من ذلك . هو من يقرأ الكتاب ، لا ليستخرج منه رأى المؤلف ، بل ليطبق عليه رأيه هو وما يعتنقه هو من نظريات فى الفكر والأدب والفن فهو يطالع كتابك ليعرف هل انت من رأيه ؟ فهو لا يريد ان يعرف عنك شيئاً ولكنه يطالبك انت بشىء : هو ان تكون قد كتبت كتابك طبقا لما يريده هو من موضوعات لم يخطر ببالك ان

تتناولها . هذا القارىء هو عكس المكتشف . فهو كالبحار الذى يخرج إلى البحر لا ليكتشف ما فيه من جزر ، بل ليقول بعد جولته السريعة : كان يجب على البحر أن يبرز لنا على مقربة منا جزيرة صالحة للزراعة ، فيها مناجم حديد وآبار بترول ،

كل هذه الأنواع من الملاحين لا يمكن أن يكتشفوا شيئا . لأنهم لا يعرفون ولا يريدون ولا يحاولون ولذلك يخرجون كلهم إلى البحار ويعودون منها ، ولا يقولون لك شيئا نافعاً مثمراً عما شاهدوا .

هذا عدا صنفاً آخر من القراء يزيفون أفكارك عندما يستعصى عليهم فهمها على حقيقتها ، أو يعبثون بها فتبدو شيئاً غثا ضحلا ، هو ولا شك من صنعهم هم ، لا من صنعك أنت .

وخير من هؤلاء جميعاً القارىء المتواضع الذى يحاول بكل أمانة وطيب إرادة وحسن طوية أن يتابع أفكارك بصبر وعناية . وهذا يكفى . سواء نجح أو أخفق فى فهم ما تريد ومثل هذا القارىء عادة لا يتحذلق ولا يتظاهر بعلم

ولا يلقى الكلام على عواهنه . إنما نعرفه جميعا من اختيار ألفاظه واتزان أحكامه .

فجملة القول إذن أن القارىء المكتشف ليس بالقارىء العادى . بل هو قارىء نادر لأنه وهب من صفات الصبر والدقة وطول البال والباع وحسن التلقى وقلة الادعاء وحب المؤلف — وأقول حب المؤلف لأنك لن تستطيع أن تتجشم جهدا فى اكتشاف شىء لاتحبه — هذا القارىء وهب من هذه الصفات كلها قدراً يؤهله لأن يكتشفك ... أى يعطيك أكثر مما يأخذ منك .

فمن يكتشف جزيرة ولو صغيرة يعطيها من القيمة فى نظر الزمن والوجود والتاريخ أكثر مما يأخذ منها .

هذا القارىء هو خالق المؤلف .

نعم ... إنه هو الذى خلق أرسطو وأبا العلاء والخيام وشكسبير .

هذا القارىء الخلاق الذى عندما يخطر له أن يكتب

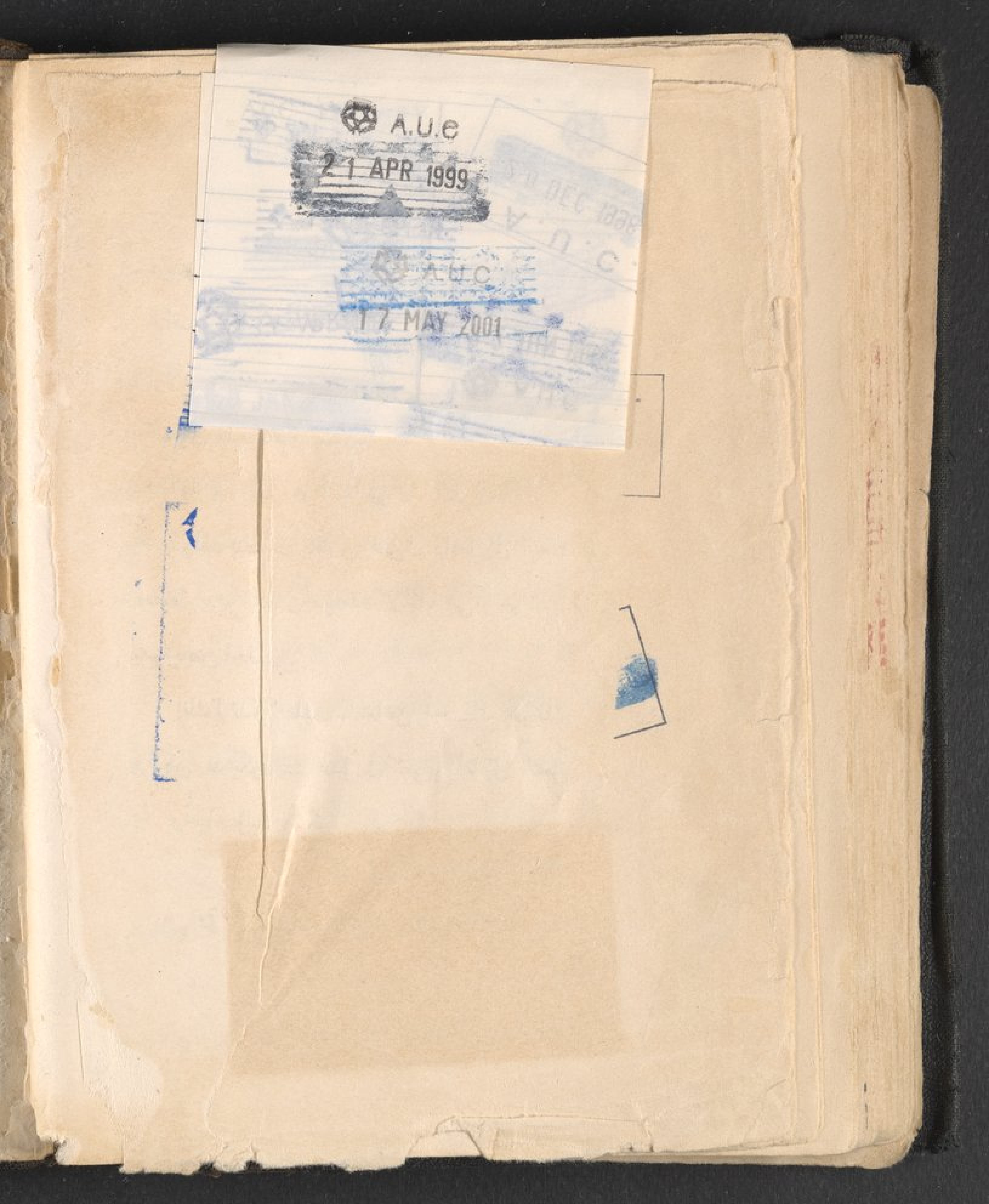
ويدون اكتشافاتهم فإنهم يسمونه « الناقد » ، أو على الأصح الناقد المفسر . هو : « خرستوف كولمب » الفن أو الأدب. لولاه ما استطاعت الأجيال أن تعرف من مخلوقات الفكر البشرى هذه العوالم والمسالك . . .

القارىء المفسر هو أيضا من هذا الطراز . . .

ولقد كنت أنت ياقارئى المجهول دافعا إلى البحث عن حقيقتى ، بما أتحته لى من هذه الأجابة التى أرجو أن يكون فيها بعض الجدوى .

إنك لم تذكر اسمك . . . ما من أحـــد يعرفك . . . ولكن قد يكون لك فضل فى تعريفى أنا إلى الناس . . . وتحياتى إليك وشكرا . . .

١٩٥٥ ت . ا


A.U.C
21 APR 1999
A.U.C
17 MAY 2001



